

جامعة الدول العربية  
متحف الدراسات العربية العالية

محاضرات  
في  
الدرجات والسلوب درستها

ألقاها

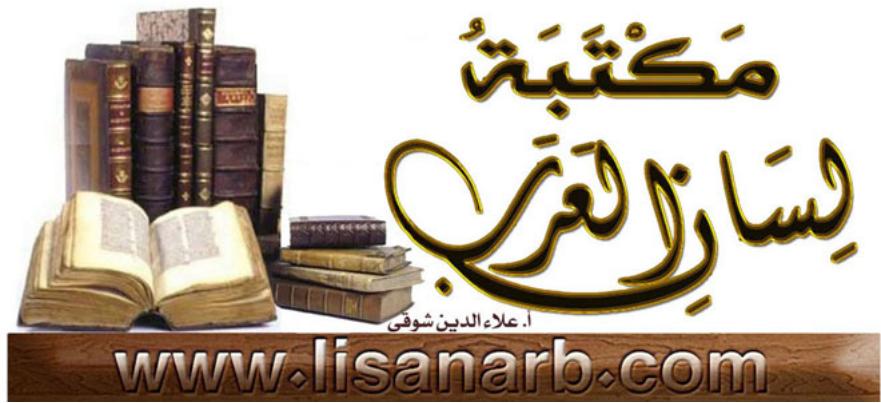
الدكتور

لينس فرجحة

[ على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية ]

١٩٥٥

١٩٥٥



# اللهجات وأسلوب دراستهم



مكتبة لسان العرب

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

lisanerab.com رابط بديل

جامعة الدول العربية  
بمحمد الدراسات العربية العالية

محاضرات  
في  
الدرجات والسلوب درستها

القاما

الدكتور

لينس فرجة

على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية

١٩٥٥

١٩٥٥



## مِنْتَدِمَةٌ

إن قضية «الفصحي والعامية»، من أهم المشاكل التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والعلم، في مختلف البلاد العربية، منذ مدة غير يسيرة. ذلك لأن الفصحي لا يعرفها إلا المثقفون، ولا يخاطب بها إلا طوائف محدودة من هؤلاء؟ وأما العامية الدارجة، فهي كثيرة الأنواع، تختلف اختلافاً بيناً لا من قطر إلى قطر فحسب، بل من مدينة إلى مدينة في القطر الواحد أيضاً. حتى إنها تختلف بعض الاختلاف من حارة إلى حارة، ومن جماعة إلى جماعة، في المدينة الواحدة، في بعض الأحيان

إذن، فنحن – عرب اليوم – بين لغة فصحي، يتتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية؛ وبين لغات عامية عديدة، يتتفاهم بكل منها جميع الناس، في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية.

ولا حاجة إلى القول. بأن هذه الحالة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية السليمة، من وجوه عديدة:

فإن كل أمة من الأمم تحتاج إلى لغة «موحّدة»، تزيدها تجاوباً وتماسكاً، ف تكون «موحّدة».

لأن مهمة اللغة – في الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية – لا تحصر في ضمان التفاهم بين المخاطبين الذين يعيشون في قرية واحدة أو مدينة واحدة، ولا بين الذين ينتسبون إلى إقليم واحد، أو قطر واحد، بل هي ضمان التفاهم والتكتاب والمخاطب وال التجاوب... بين جميع أبناء الأمة، على اختلاف مدنهم وأقطارهم.

والتاريخ الحديث مليء بأمثلة بليعة، على الجهود الجبارات التي بذلها – ولا يزال يبذلها – عدد غير قليل من الأمم والدول في هذا السبيل، توطنة لاستقلالها، أو ضماناً لوحدتها.

(ب)

فحن العرب نفتقر اليوم إلى «لغة»، يتفاهم بها جميع الناس، في جميع الأقطار العربية.

ولكن، ما السبيل إلى ذلك؟

ماذا يجب أن نعمل للتخلص من البلبلة الحالية، والتنعم بنعمة «لغة موحدة وموحدة»، في جميع الأقطار العربية؟

إذا تأملنا في هذا الأمر بالمنطق المجرد، خطر على بالنا ثلاثة سبل أساسية:

(أ) السعي وراء نشر وتعيم لغة من اللغات الدارجة – أي لهجة من اللهجات العامية – على جميع البلاد العربية؟

(ب) السعي وراء نشر اللغة الفصحى، بين جميع طبقات الشعب، في كل قطر من الأقطار العربية.

(ج) السير على طريقة متوسطة بين الأولى والثانية، على أساس تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى.

ولا حاجة للبيان أن الطريقة الأولى – أي طريقة تعيم لغة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية – غير منطقية وغير عملية. فلابد من التوجه إلى اللغة الفصحى، التي لها جذور عميقة وأسس متينة، ومئلون أقوياء، في جميع البلاد العربية. ولذلك يحسن بنا أن نحصر البحث والنقاش في الطريقتين الأخيرتين ووحدهما:

من المعلوم أن قواعد الفصحى: في حالتها الحاضرة، معقدة كل التعقيد، وصعبة أشد الصعوبة، وبعيدة عن اللهجة الدارجة بعدها كبرأ. فيجدر بنا أن نتساءل: هل من الضروري أن تمسك بجميع تلك القواعد التي وضعها أو درنها اللغويون منذ قرون عديدة؟ هل يتحرم علينا أن نصرف قوانا في سبيل نشر وتعيم جميع تلك القواعد والأساليب؟ ألا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحى، ونشذبها تشذيباً معقولاً، يكسبها شيئاً من السهولة، من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية؟ أفلانستطيع أن نطعم اللغات الدارجة

باللغة الفصحى تطبعها يبعدنا عن حذقة علبة اللغة ورطامة عوام الناس ، في وقت واحد ، فيوصلنا إلى فصحى متوسطة ، معتدلة ؟ أفلأ يحسن بذلك أن نلجأ إلى هذه الطريقة ، ولو بصورة مؤقتة ، كمرحلة من مرحلة السير والتقدم نحو النصحي الشامة ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة – إجابة صحيحة – تتطلب القيام بأبحاث علمية واسعة النطاق ، قتناول اللغة الفصحى واللغات الدارجة في وقت واحد ، وتدرس المضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع جوها .

أولاً ، يجب أن نبحث : ما هي الحدود الفاصلة بين الفصحى وبين العامية ؟ ما هي الفروق التي تميز الأولى عن الثانية من حيث المفردات وكيفية لفظها من ناحية ، ومن حيث التراكيب وأسلوب ترتيبها من ناحية أخرى ؟

وفي أمر المفردات : هل يجوز لنا أن نعتمد على المعاجم والقواميس المعلومة كل الاهتمام ؟ يجب أن نفكر في ذلك ملياً ، لأنه من المعلوم أن تلك المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التي لم يعد أحد يشعر ب الحاجة إلى إستعمالها ؛ ومقابل ذلك أنها حالياً من عدد غير قليل من الكلمات التي استعملها ولا يزال يستعملها أشهر الأدباء والعلماء في أهم آثارهم العلمية والأدبية ، كما أن الكثير من الكلمات القاموسية تستعمل الآن في معانٍ مختلف عن المعانى التي كان قد درنها القدماء كل الاختلاف ؛ فلا بد لنا من أن نبحث عن معيار آخر يساعد على تمييز النصحيح عن العامى تميزاً معقولاً .

وفي أمر القواعد : هل يترتب علينا أن نعتبر آراء العلماء القدماء القول الفصل فيها ؟ ألم يختلف هؤلاء أنفسهم فيما بينهم في أمور التجويز والتفضيل والترجيح ؟ أفلأ يتحقق لنا أن نعيد البحث والنظر في تلك الأقوال والأراء ، وأن نسلك مسلكاً مختلفاً عن مسالكهم في أمر التجويز والتفضيل ؟ وهل يت Hutch علىينا أن نسعى وراء نشر وتعيم تلك القواعد بخدايرها ؟ أفلأ يمكننا أن نستغني عن البعض منها لنجعلها أقل تعقيداً وأكثر قابلية للانتشار ؟ وفي الأخير ، ولو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد ، أفلأ يجب

علينا أن نرتبتها ترتيباً معقولاً ، لنقدم الأهم على المهم . ونسير على قاعدة التدرج في جهودنا ، التفصيحية ، ؟

\* \* \*

ثانياً : يجب علينا أن ندرس اللغات العامة dialects واللهجات المحلية patois ، المنتشرة في مختلف البلاد العربية : ماهي أنواعها ؟ وما هي خصائص كل نوع منها من حيث الكلمات والألفاظ والتعابير ؟ وما هي حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات وأساليب والتعابير ؟ وما هي أسباب اختلاف هذه اللهجات عن النصحي من ناحية ، وبعضاً عن بعض من ناحية أخرى ، ألا يوجد بين الكلمات الدارجة في بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ؟ ألا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة مشتركة ؟ ألا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشتركة على وجود دوافع عامة وضرورات مشتركة ؟ أولاً يجب علينا أن نستكشف هذه الدوافع وال حاجات لكي نستطيع ان نعالجها بأساليب أقرب إلى الفصاحة على قدر الإمكان ؟

\* \* \*

إن كل هذه الأمور والسائل ي يجب أن تدرس وتحث بكل اهتمام .  
وفضلاً عن ذلك كله يجب علينا أن تتبع التطورات التاريخية أيضاً :  
من المعلوم أن اللغة كائن حي ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو  
تبعاً لنمو الأفكار وتتنوع الحاجات . فإن لكل كلمة ، وكل أسلوب ، في كل  
لغة وفي كل لهجة تاريخ طويلاً أو قصيراً ، ماض قريب أو بعيد .

إن نظرة فاحصة سريعة إلى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية  
في مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريباً -منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى  
مثلاً - تكفي للتأكد من صحة ما قلناه آنفاً : لقد حدثت تطورات كبيرة  
في لغة الدواوين ، وفي لغة الصحف ، وفي لغة التخاطب في مختلف البيئات .  
في جميع البلاد العربية فقد دخل في كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة

مشتقة من أصول فصيحة ، أو مقتبسة من اللغات الأجنبية . معظم هذه الكلمات المقتبسة ، كانت فرنسية في بعض البلاد العربية ، وانكليزية في بعضها الآخر ، وأسبانية في بعضها وإيطالية في بعضها الآخر ، وذلك تبعاً للأوضاع السياسية الخاصة التي طرأت على كل واحدة من تلك البلاد . ومن جهة أخرى بدأت حركة معاكسنة لترك تلك الكلمات الأجنبية واستبدالها بكلمات عربية .

ثم إن ازدياد التواصل والتعامل والتلاور بين المدن والأرياف من جهة ، وبين الأقطار المختلفة من جهة أخرى ، أدى إلى حدوث تغير محسوس في أوضاع اللهجات المحلية وفي التعبير العامية أيضاً : صارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيراً كبيراً في اللهجات الفرعية ، كما أن لغة عامة الناس أيضاً أخذت تهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم ، وإزدهار الصحافة ، وتعرّب دواعين الحكومة ، وقيام الحياة النيابية .

ولا نغالي إذا قلنا ، إنه أخذنا يتكون في بيوت المثقفين في جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشيء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامية .

فيحسن بنا أن تعمق وتوسّع في دروس هذه التطورات وتدوينها ، لنستفيد منها ونستثمر في تقرير خططنا الاصلاحية .

\* \* \*

يتبيّن من كل ما تقدم ، أن الأبحاث اللغوية لا يجوز أن تبقى محصورة بين صحف الكتب والمراجع المعلومة ؛ بل يجب أن تخرج إلى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ في تلك الميادين بصورة فعلية .

ويجب علينا أن لا ننسى أن علماء اللغة القدماء تحولوا بين القبائل ، ودنوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام . فيحسن بنا أن نقتدي

( و )

بهم في هذا المضمار : فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، في كل مدينة وفي كل بيته ، بين الزراع والعمال ، بين البناء والتجار ، في المدن والأرياف ، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والأطفال .

ولا يجوز لنا أن تقاعس عن العمل في هذا السبيل بحجج « الاكتفاء باللغة الفصحى » ؟ إذ يجب علينا أن نعلم العلم اليقين بأن تغيير الأشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميسها ..

\* \* \*

إن معهد الدراسات العربية العالية قد أدخل في برامجه أمر دراسة « اللهجات العربية الحالية » ، ( بناء على الملاحظات الآتية الذكر )

والغاية القصوى منها ، هي إعداد الأبحاث العلمية اللازمة لاستكشاف أنجع السبل لجعل لغة الضاد « موحّدة وموحّدة » في جميع البلاد العربية.

إن محاضرات الدكتور أنيس فريحة — التي نقدمها اليوم — هي مقدمة لهذه الدراسات .

١٩٥٥ / ٢ / ١٩

أبوخدون

ساطع المصري

## مُهَدَّمة

يحسن بنا ، ونحن في هذه الغمرة من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، أن نعيد النظر في تقييم الأشياء ، حتى وإن كانت هذه الأشياء من الحرمات والمقدسات . لأن على الأمة الناشئة التي تبني للحياة أن تؤسس على حقائق ، إذ لا يحرر الفكر سوى الحقيقة .

واللغة من الأمور التي ينبغي لنا أن نعيدها . فاللغة أساس الفكر وطريق الإنسان لإدراك الكون . ولكن تفكيرنا اللغوي لا يخرج عن نطاق التاريخ والتقليد ، ونظرتنا إلى اللغة لا تتعدي حدود العاطفة . ورغم أنَّ العربَ اليومَ يحاولون أن يجاهموا قضاياهم الاجتماعية والسياسية بروح الموضوعية العلمية نراهم في قضايا اللغة يُثرون العاطفةَ ويحكمونَ القلب . ولكن اللغة شأنها شأن كل مؤسسة بشرية أخرى تخضع للكم والكيف ، وقد آن للعرب أن ينظروا إلى اللغة نظرتهم إلى أيةِ مؤسسة أخرى تخضع لقوانين العلم .

وإننيأشعر بإعتذار ونفر أنْ يتيحَ لي معهدُ الدراسات العربية العالية فرصةً إثارة قضية اللغة ودرِّسها على صعيدِ الفكر . في هذه المحاضرات القليلة العدد سنُعيَّد النظرَ في تعريف اللغة وتطورِها وتجزئتها إلى لهجاتٍ مُحكمةٍ وأسلوب دراسة هذه اللهجات دراسة تقريرية وصفية (descriptive) وسينخُصُّ لهجةً لبنان بأكمله نصيب من البحث .

وموضوع اللغة الأدية والمحكية موضوع خطير ، ولكنه حساسٌ مثير . ولا غرو فاللغة لصيقة بالدين والأدب والتاريخ والقومية . ولست أشك في أن ما أقوله خروجٌ على المأوف في تفكيرنا اللغوي . ولكنني موقن أنكم ستقبلون هذه النظريات بالروح التي يفرضها العلم .

أثبيس فرجيم



## مشكلتنا اللغوية

تختصر مشاكل اللغة العربية الأساسية في خمسة أمور :

(١) وجود لغتين مختلفتين : عامية وفصحي .

(٢) تقييد الفصحي بأحكام شديدة .

(٣) الخط العربي الحالي من الحروف المقوته ( vowels ) .

(٤) عجز العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون .

(٥) تدريس اللغة العربية وقواعدها على أساليب قديمة .

(٦) وجود لغتين مختلفتين: عامية وفصحي :

مشكلتنا اللغوية الأولى مشكلة كلِّ شعب مزدوج اللغة ( bilingual ) . فإننا نفكر وتتكلّم ونغنّى ونتتممّ صلواتنا ونناجي أطفالنا ونهمس في آذان من نجّبهم ونتفاهم معَ من نرحب في التفاصيل معهم ، ونشاتم مع من يروق لنا أن نشاتم معهم بلغة محكية سلسلة سالية لا تعوق الفكر ولا تصلب منا جهداً . ولكن عندما نقف موقفاً رسمياً - كأنَّ يكون أحدُنا معلماً أو واعظاً أو محاماً أو محدثاً في الإذاعة أو حاضراً في قاعة الدرس - علينا أن تتلبس شخصية لغوية ثانية . علينا أن نتكلّم لغة غريبة عن لغة الحياة اليومية ، «عربية» شديدة الأحكام في التركيب والتعبير . واللغة هي الفكر أو أساس الفكر ، فإننا نفكّر بوساطة اللغة ، وإذا أدركنا الأمور فإننا ندركها بوساطة اللغة ، وإذا تصورنا الأشياء فإننا تصورها بوساطة اللغة ، وإذا إنطلقت إلينا اختبارات الإنسانية فإنها تنتقل إلينا بواسطة اللغة . فاللغة عنصر من عناصر الحياة الإنسانية وهي جزء من جهازنا العصبي البيسيكولوجي . وهذا يقع التناقض ، فإن علينا ، في الموقف الرسمي أن نتكلّم وأن نكتب لغة وقفت في تطورها عند نقطة معينة في الزمان والمكان .

أما لغة الناس التي لم يُسَيِّجْ حولها بسياج من الأحكام الشديدة ، فقد تجزأ إلى هجرات محاكية ، يُسرّتها الحياة وصقلتها الأيام .

### (ب) تقيير الفصحي بأهميته شديدة : سر البايج أ طرحة

واللغة لا تقييد . اللغة مجرى . غير أن منزلة اللغة العربية في الدين والقومية قضت أن يُسَيِّجْ حولها بسياج من الأحكام والقواعد . و شأنُ العربية في هذا شأن كل لغة أخرى يحرص أهلوها على حفظها من التجزؤ والتفكك وقد تأثر قدامي اللغوين بأصول المنطق الإغريقي وخاصة بفلسفة أرسطو اللغوية . فإنه — أرسطو — كان يرى أن لغته تركيباً خاصاً وهذا التركيب هو المنطق السليم . فراح يضع لغته صرفاً فلسفياً (Philosophical grammar) مبنياً على العلة والمعلول والعامل والمعمول والتقدير والإضمار والأفتراض . وأنت إذا درست فلسفة النحو العربي وجدت أنه لا يخرج بجوهره عن فلسفة أرسطو في اللغة إن من جهة التبويب أو من جهة التعليل وقد حاول لغويون العرب أن يجدوا ناماوساً عاماً جمجمة المظاهر اللغوية وحاولوا أيضاً أن يجدوا منطقاً للغة . ولكن اللغة لا تخضع لنوايسٍ عامة ثابتة ، ولا تخضع لقوانين المنطق . ومن هنا كانت الصعوبة في وضع الأحكام ، ومن هنا نشأت القواعد الفرعية والاستثناءات والشواذ .

### (ج) الخط العربي الخالي من الحروف الصوتية (vowels)

فإن العربية شأنها في الكتابة شأن سائر اللغات السامية التي اقتصرت في الكتابة على الحروف الصامتة مما يجعل من صورة الكلمة هيكلًا عظميًّا لا حياة له . وهذا يجعل عملية القراءة أمراً عسيراً إذ تفرض هذه الطريقة في الكتابة — كتابة الحروف الصامتة فقط على القارئ أن يفهم أولاً ، كما قال قاسم أمين ثم أن يقرأ قراءة صحيحة ثانية . وهذا على نقىض الغاية من القراءة فإننا الشعب الوحيد الذي يجب أن يفهم ليقرأ بينما جميع شعوب الأرض تقرأ فتفهم . كان ولد يقرأ على أستاذه نصاً خالياً من الحركات . فأقى على الكلمة

«فستكون»، فوقف التلميذ أمام هذا الهيكل العظمى الميت حائراً لا يدرى كيف يتلفظ به وبعد محاولات عدة قرأها فستكون ( FSTKWN ) فكان ذلك نكتة ضحكنا منها كثيراً. ولكن الطالبقرأ واحدة من الامكانيات التي تعد بالمئات، وإن كنت في شك من ذلك سل مدرساً في الرياضيات فإنه يعطيك القاعدة الرياضية!

وقد أدرك بجمع فزاد الأول للغة العربية خطورة هذه المشكلة من ناحيتها التربوية والفكرية والأقتصادية فوضع جائزة قدرها ألف جنيه مصرى لمن يقدم أفضل إقتراح، أو من يرسم أفضل هجاء من شأنه تسهيل القراءة، والمشكلة لا تزال قائمة.

#### ( د ) نصيحة العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون

أو ذلك لأن معظم هذه التعبير الجديدة والمصطلحات المحددة معنىً وإستعمالاً لم تك يوماً من المعجم العربي ولم تك من القضايا العلمية والفكرية التي عن بها الفكر العربي، لأن الفكر العربي لأسباب وقف في التاريخ عند نقطة معينة، فمن الطبيعي أن تجد العربية نفسها الآن عاجزة عن اللحاق بالعلوم والفنون.

لغة كل شعب مرآة حياته وبيته! فإن لغة الأسكيمو الفقيرة بفرادتها تصلح أن تكون أداة حسنة للتعبير عن حياة الأسكيمو وعن محيطه الجاف القاسي، ومن يطلب من لغة الأسكيمو، دون تعديل فيها، أن تنقل حضارة الغرب اليوم بفكره وروحه وعلمه إنما يطلب المستحيل، وكل من يعتقد أن العربية اليوم، بحالها الحاضرة، وبالنسبة إلى تزهت بعض الناطقين بها، تستطيع بيسر أن تعبر عن مختلف العلوم والفنون واهم.

نعم، إن اللغة العربية غنية بفراداتها في نواحٍ كثيرة، عظيمة الإمكانيات في اشتقاقة وقياسها، وقد إستطاعت يوماً أن تنقل إليها حضارات الشرق الأدنى عن طريق الترجمة والتعریب والتوليد وإحياء مفردات قدیمة وإسماً ياغ المعانى الجديدة عليها، ولكن تقدم العلم والفن والفلسفة في القرنين الأخيرين

— وفي القرنين الأخيرين كنا نياما — كان سريعا ففينا ولغتنا قاصرة عن التعبير عن هذه الحياة الجديدة .

### (ه) تدريس اللغة العربية وقواعدها على أساليب فربعة

إن تدريس اللغة العربية وقواعدها لا يختلف اليوم جوهرآ عما كان عليه في حلقات الكوفة والبصرة وفي مدرسة بغداد التوفيقية على يدى ابن الأنبارى . نعم ، قد يكون في بعض كتب القواعد شيء من التسهيل والتقريب والتبسيط والإكثار من الشرح والأمثلة ، إنما جوهر الأسلوب في تبويبه وفي مصطلحاته وفي تعليله لا يختلف عن أساليب القدماء وتعليقهم . وكثيرة هي المحاولات التي قام بها صرفيون قدماه ومحدثون لتذليل النحو والصرف وتقريريه من أفهام الناس ، ولكن هذه المحاولات لم تمس الجوهر ولا اعدلت في المصطلحات ولا خفت من إرهاق التعليل ، فكان من تابع هذا الأسلوب النفرة التي نلحظها عند طلاب العربية ، وهذا الضعفُ الذي ينلها في مستوى التلاميذ عند إتقانه فترة الدراسة الثانوية . ولنا في الموضوع إقتراح نشرناه في الناس بشكل كتاب سميناه « تبسيط قواعد العربية وتنسيقها على أساس منطقي » . قبل به بعض الناس وسفه رأينا البعض الآخر .

\* \* \*

هذه مشاكل اللغة العربية الأساسية ، وكل مشكلة منها تحتاج إلى دراسة عميقة وإلى حلول عملية . ونحن لانشك في أن بعض هذه المشاكل ميسور الحل وبعضها يحتاج إلى عنصر الزمن . وقد آثرنا استعراضَ المشاكل اللغوية إستعراضًا مقتضباً سريعاً في مدة الحاضرات لنرى إذا كان في درسنا العربية وتطورها ونشوء هجاتها ما يعيننا على إيجاد الحلول الصالحة ، لأن حل أية مشكلة يتطلب تفهم المشكلة أولاً ، وتتوفر العزم والإرادة ثانياً .

## ما هي اللغة

لننجيب عن هذا السؤال الذي يبدو بسيطاً ، بتعريف جامع مانع كأن نقول : « اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ، أو أداة للتفاصيم ، أو وسيلة لنقل المعاني » ، لأن صوغ تعريف على شامل للغة ليس بالأمر اليسيير كما قد يتبدّل إلى الذهن .

وقد يبدو ترددنا في تعريف اللغة غريباً ، لأن اللغة ، من الأمور الطبيعية المألوفة التي يمارسها جميع البشر على اختلاف أجناسهم عفوياً . فإنها لا تتطلب جهداً ولا تفكيراً . يستعملها الولد بيسراً ، وهي عملية بسيطة كالمشي والأكل والشرب والنوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام . وهما نحن نتكلّم في كل حالة من حالات الحياة وفي كل ساعة من ساعات الليل والنهار سواء كنا نائمين أو حاليين أو هاذين . فلماذا نقول إن تعريفها أمر شاق ؟

خذ هذا التعريف المكرر : « اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر » وحاول تطبيقه على واقع اللغة ثم سل نفسك : هل صحيح أن اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ؟ هل اللغة « مجموعة أصوات » هل فكرة « البيت » ، قائمة في الأصوات التي تتألف منها الكلمة ؟ بكلام آخر ما علاقة أصوات حروف الكلمة ومعناها ؟ أليس المعنى قائماً في الاختبار لا في الصوت ؟ عندما نسمع لفظة « بيت » ، أليس الاختبار في حنایا العقل وهو الذي يترجم الصوت إلى المعنى ؟ ولذلك أن تسأل هل كل صوت هو « لغوی » ؟ كلاً . فإن هناك أصواتاً عديدة لا تدخل في نطاق الأصوات اللغوية كالأصوات الطبيعية والحيوانية وبعض الأصوات التي تخرجها من بين الأسنان ، أو من الحنيشوم أو من أقصى الحلق ، أو كالأصوات التي نحدثها بالتواهات مختلفة للسان ، هي جميعها أصوات لا تدخل في نظام الأصوات اللغوية . إذاً علينا أن نحدد كلمة الصوت اللغوي .

وعلماء اللغة ، رغبة منهم في الدقة العلمية ، يطلقون على أصوات اللغة مصطلحاً علمياً : فونيم ( وجمعها فونيهات Phoneme ) أي الوحدة الصوتية للغة . ويعنون بالفونيهات مجموعة الوحدات الصوتية التي تشكل النظام الصوتي للغة . وتتمثل الفونيهات عادة بحروف الهجاء ، ولكن حذار من أن نعتقد أن عدد الفونيهات في اللغة ينبغي له أن يطابق عدد حروف الهجاء في تلك اللغة . كلا ، فقد يكون في اللغة ما ٢٦ أو ٢٧ أو ٢٨ حرفا هجائيا ولكننا إذا أحصينا عدد فونيهات هذه اللغة لوجدنا أنها تربو على عدد حروف الهجاء . ونمثل لك على هذا بفونيم « ث » في اللغة الإنكليزية فإنه عنصر من عناصر اللغة كاف *Thin* . ولكن هذا الفونيم لا رمز له ( أي لا حرف له ) بل يرمزن إليه بحرف *Th* . وقل هذا في فونيم « ذ » فإنه عنصر من عناصر الإنكليزية كـ *Mother* ولكن فونيم « ذ » لا رمز له ( أي لا حرف له ) بل يرمزن إليه بحروف أخرى .

وفضلاً عن هذا فإن علماء الفوتيليك يقولون لنا إن للفونيم الواحد أكثر من لفظ واحد . قد يكون له ثلاثة ألفاظ أو أربعة . فونيم *P* في كلمة *Speak* هو غيره في اللفظ في الكلمة *park* . وقل هذا في فونيم *t* فإنه في *sting* غيره في *teem* . قد لا تستطيع أذنـك أو أذنك أن تميز بين لفظ آخر للفونيم الواحد ولكن الآلة المسجلة والفوتيكي المجرب يستطيعـان ذلك . وما قولـك في هذه الفونـيات : *a e i o* ؟ ألا تختلفـ لفـاظاً تبعـاً لـوقـوعـها فيـ كـلـمـاتـ مـخـتـلـفةـ ؟ هلـ الفـونـيمـ *a*ـ فيـ *father*ـ وـ فيـ *fat*ـ وـ فيـ *female*ـ وـ أحدـ فيـ الـ لـفـظـ ؟ ثمـ أـعـتـبـرـ الشـقـ الثـانـيـ مـنـ التـعـرـيفـ :ـ الـ لـغـةـ أـدـأـةـ لـلـتـعـبـيرـ عـنـ الـ فـكـرـ ،ـ يـقـولـ لـنـاـ بـعـضـ الـ بـسـيـكـوـلـوـجـيـنـ إـنـ الـ لـغـةـ هـىـ الـ فـكـرـ ذـاـهـةـ ،ـ أـوـ هـىـ أـسـاسـ الـ فـكـرـ وـ طـرـيـقـ الـ أـنـسـانـ لـلـفـكـرـ .ـ وـ يـؤـكـدـ بـعـضـهـمـ أـنـاـ لـاـ نـسـطـيـعـ التـفـكـيرـ بـدـوـنـ كـلـمـاتـ .ـ فـإـذـاـ قـبـلـنـاـ هـذـاـ التـحـدـيدـ –ـ بـأـنـاـ أـدـأـةـ لـلـفـكـرـ –ـ نـكـونـ قـدـ

فصلـنـاـ الـفـكـرـ عـنـ أـدـأـةـ التـعـبـيرـ عـنـ الـفـكـرـ ،ـ وـ هـذـاـ مـاـ لـاـ يـقـبـلـ بـهـ الـبـعـضـ .ـ وـ خـلـ عـنـكـ هـذـهـ القـضـيـةـ الـفـلـسـفـيـةـ الـبـسـيـكـوـلـوـجـيـةـ وـ لـنـعـدـ إـلـىـ صـعـيـدـ أـدـنـيـ وـ نـسـأـلـ إـذـاـ قـبـلـنـاـ هـذـاـ التـحـدـيدـ أـلـاـ نـكـونـ قـدـ عـظـمـنـاـ مـلـاـيـنـ النـاسـ الـذـينـ يـتـكـلـمـونـ

ولكنهم لا يعبرون عن الفكر ، وألا نكون قد حقرنا الفكر بإعتبارنا كل ثورثة تعبيراً عن الفكر ؟ عندما يغضب أحدهنا ، أو عندما تهال من فيه الشائم والمبait ، أو عندما نغنى ، أو عندما يحي بعضاً ، أو عندما تتكلم لأنفسنا ونحن سائرون في الطريق أو مستلقون على فراش ، هل في هذه المواقف والشبهة بها ، تعبير عن الفكر ! ثم إننا أحياناً نرغب في التعمية والتقوية والإخفاء وأداتنا في ذلك اللغة التي يقولون لنا إنها لنقل الفكر أو للتعبير عنه !!

لا نكران أن اللغة أداة للتعبير عن الفكر أحياناً . فالحاضر يعبر عن أفكاره بوساطة اللغة ، والمعلم في مدرسته ، والعالم في مختبره ، والنائب في برلمانه ، والصحافي في مكتبه ، هؤلاء جميعاً يعبرون عن الفكر باللغة ولكن حصر اللغة بأنها إداة للتعبير عن الفكر أمر بعيد عن الواقع

وكذلك قد تكون اللغة تعبيراً عن شعور وعاطفة . وقد يكون منشئها العاطفة والشعور لا الفكر . اللغة للغناء ، للشعر ، للاقصيص ، للأساطير ، للخرافات ، فهي بهجة ومتعة ، وهي متৎس عن حزن وألم . فاللغة إذن أكثر من مجموعة أصوات ، وأكثر من أن تكون أداة للتفكير أو تعبيراً عن عاطفة . اللغة جزء من كياننا البيكولوجي الروحي وهي عملية فيزيائية إجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد ، وتناول أربعة أمور أساسية ل تمام العملية المعقّدة :

(١) متكلم

(ب) مخاطب .

(ح) أشياء أو فكر يتكلم عنها .

(د) كلمات أو مفردات (أو إشارات ملائحة أو يدوية) وهي مجموعة فوئيات لها في الذهن صور معينة ، أي معان .

ولإيضاح هذه العملية المعقدة نأخذ مثلاً بسيطاً لا يتบادر إلى ذهاننا أنه على شيء من التعقيد . تصور رجلاً يمشي في حقل مع ولده الصغير . يرى الولد شجرة تفاح عليها ثمر شهي فيقول لو والد : « أقطف لي يا بابا تفاحة » . وقد ينزل الوالد عند طلب ولده فيتناول تفاحة وقد لا ينزل عند طلبه فيقول : لا . التفاح ليس لنا ، للتفاح أصحاب . فلنحل هذه العملية الفيزيائية الاجتماعية البسيكولوجية .

تبدأ العملية بالصور المرئية بعالم الأشياء المحيط بنا ، وهي العامل المؤثر في شهرى الولد التفاحة و تستحيل الصورة الذهنية إلى صورة كلامية تعبيرية : « أقطف لي يا بابا تفاحة » . كيف تحولت الصورة الذهنية إلى صورة صوتية تعبيرية ؟ أين كانت هذه الكلمات في دماغ الولد ؟ ما العلاقة بين العامل المؤثر وبين النطق ؟ ماذا جرى ، وكيف تم ؟ ثم إن هذه الأصوات التي فاه بها الولد إنطلقت إلى أذن الأب بوساطة توجات في الهواء أولاً ثم إلى دماغه ثانياً . كيف ؟ ماذا كان رد الفعل ؟ كيف فهم المخاطبُ المخاطب ؟ ماذا دار في دماغ الوالد عند سماع الفونيات ؟ وهل المعنى في الصوت أم المعنى قائم في الإختبار ؟ أي ما العلاقة بين الأصوات والمعنى ؟ وكيف توصل إلى حكم أولاً في العقل ثم استحال الحكم إلى أصوات تعبيرية فقال له « نعم » أو « لا » التفاح ليس لنا . ؟

هنا يتدخل البسيكولوجي ويقول : درس اللغة ليس من إختصاص علماء اللغة بل اللغة فرع من فروع علم البسيكولوجيا . اللغة « تصرف رمزي » . ولا تفسر إلا على أساس المؤثر ورد الفعل . هاتان العبارتان : « أقطف لي تفاحه » و « والتفاح ليس لنا » رد فعل بسيكولوجي ولا معنى لها تين العبارتين إلا إذا فهمنا الظروف المحيطة بالوضع الذي نطق بهما . ثم أن البسيكولوجيين أنفسهم ، إذا سلمنا أن درس اللغة من إختصاصهم يختلفون كثيراً فيما بينهم في تفسير هذه الظواهر . فقد كان بعضهم إلى زمن قصير يعتقد بالتحليل النفسي أو الروحي ، أي أن هناك قوة روحية أو عقلية

أو نفسية غير مادية تحرّك الإنسان . ولكن جلهم الآن يعلّلون هذه الظواهر البيكولوجيّة على أنها عمليات فيزيائية ميكانيكيّة : مؤثّر ورد فعل وتلاّؤم وتصّرف رمزي .

ترىون ما تقدّم أنّ اللغة ليست ظاهرة بسيطة بل يتطلّب فهمها فهما صحيحاً إثارة أسئلة خطيرة وعلى كثيّر من التعقيّد والغموض . أمّا نحن فهمنا من الأمر تقرير واقع : اللغة ظاهرة إجتماعية بسيكولوجية مكتسبة ،<sup>(١)</sup> لاصفة بيولوجية<sup>(٢)</sup> ملزمة للفرد . وتنّاول من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الإختبار معانٍ مقرّرة في الذهن . وهذا النّظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتفتّاعل . وباللغة فقط تطورت الحضارة وتقدّم العمران وبلغ العقل الإنساني ذروته . فدرس اللغة درساً فلسفياً علمياً درس في الإنسان وفكرة . وهذا أمر هام بالنسبة إلينا نحن العرب فاللغة عندنا أداة مركبة من أصوات فكلمات فتراًكيب بينها هي في الواقع جزء من كياننا العقلي الروحي . هي أكثر من أداة هي جزء من الحياة .

(١) إذا فضم طفل عن المجتمع فإنه لن يتكلّم بل ينطق غير لغوية كسائر الحيوانات . وقد يكون لهذه الأصوات معانٍ ولكنها ليست لغة . وكذلك إذا نشأ طفل في محیط غير محیطه فإنه يكتسب لغة القوم الذين يعايشهم .

(٢) إنّ أعضاء النطق كالحلق واللسان والرعنين والحنجرة ، وغيرها كثيّر ، ليست للنطق أولاً ، أي أنّ وظيفتها الأولى هي غير النطق بل لها وظائف جسمانية .

## كيف نشأت اللغة؟

لا نعلم على وجه التحقيق . أصل اللغة وثيق الاتصال بأصل الإنسان ذاته وتطور جسمه وعقله . إذا قضية أصل اللغة ليست قضية لغوية بحتة ولا تدخل في نطاق علم اللغة (Linguistics) بل في نطاق البيكولوجيا والأنثروبولوجيا والفلسفة .

إن معرفتنا بتاريخ الإنسان قبل التاريخ المدون قد ازدادت في القرن الأخير، ولكن رغم تقدم معارفنا في هذا الحقل فإن أصلَ الإنسان ونشأته من حيوان أبكم إلى حيوان ناطق ، من حيوان لا يعقل إلى حيوان عاقل ، لا يزال مكتتفاً بحجب من الأسرار ، ولكن نهتك هذه الحجب علينا أن نرجع إلى عهود سحرية في القدم لا نعلم عنها شيئاً علماً يقينياً ، والعلم لا يعترف بشيء اسمه حدس أو خيال ، ولا يأخذ بشيء اسمه غيبيات ، إلا إذا كانت افتراضات قيدَ البرهان .

ولكنَّ أصلَ الإنسان ونشأةَ لغته أمرٌ يثيرُ الخيال ويستأنفُ إلى العقل ونعتقدُ أنَّ معرفةَ أصلَ اللغة من أقدم المشاكل الفكرية التي جاها عقلَ الإنسان . فإنَّ كاتب قصة الخلقة عزَّاها إلى الله . الله عَلِمَ آدمَ الكلام . وقد انقسمَ العرب إلى قسمين إزاء هذه المشكلة<sup>(١)</sup> .

فقالت جماعة إنَّ اللغة توقيفية ، أي أنَّ اللهَ عَلِمَها الإنسان ، وقالت جماعه أنها اصطلاحية . وكان هم علماء اللغة ، منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى زمان قريب مما أنَّ يتوصلا إلى حل هذه المشكلة . ولكنهم كانوا يدورون في حلقة مفرغة . وكثير القول فيها إلى حد جعل الجمعية اللغوية الفرنسية

(١) ترى نموذجاً من هذا البحث في ابن جني (أبو الفتح عنان) في كتابه «الخصائص» «باب القول على أصل اللغة المام هي أم اصطلاح» . ص ٣٩ (مطبعة الهلال بالفجالة ١٣٢١) وعنه أخذ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي في «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» ص ١٧ - ٢٠ . دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة .

Societe de Linguistique تمنع بقانون إلقاء محاضرات في هذا الموضوع ، لأن هذه النظريات – وسنذكر لكم تفاصيلها – لا تفسر أصل اللغة . وقد كانت الجمعية اللغوية على شيء من الحق في منع الموضوع ، لأنه ، كما ذكرنا آنفاً ، لا يدخل في نطاق علم اللغة بل هو أقرب إلى الحدس والخيال . يجب أن يبحث عن أصل اللغة في نشوء التصرف أو السلوك الرمزي (Symbolic behaviour) ولكن من قبيل العلم بالشيء لا الأخذ به يحسن بنا أن نأتي على ذكر بعض هذه النظريات ، إن لم يكن لغرض سوى أن ندلل بأن اللغة تنشأ من أسفل وترتقي إلى أعلى ولا تهبط من عل إلى أسفل ، منها .

(١) نظرية البو – و و bow waw

ومفادها أن أصل اللغة حاكاة أصوات طبيعية ، وقد أشار العرب إلى هذه النظرية ، وبطريقة غير مباشرة ، عندما تكلموا في «حكاية صوت»<sup>(٢)</sup> . وقد أدى إلى وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة ، في كل لغة ، لفظها يدل على معناها مثل الرنين والغنة والزقزقة والقهقهة والخفيف والخزير والخشخše والطقطقة . وإننا نرى شيئاً من صدق هذه النظرية متمثلاً في لفظة Cuckoe وهي اسم طائر سمي بالصوت الذي يحدّثه . وقل هذا في لفظة «مون» فإنها تعني في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة ، وظاهر أن التوافق في التسمية عند المصريين والصينيين يرجع إلى أن المرة سميت بالصوت الذي تحدثه.

ولكن الكلمات التي يمكن أن تفسر على مبدأ نظرية البو – و و قليلة جداً . وفضلاً عن هذا فإن النظرية تعجز عن أن تفسر لنا كيف استعمل مبدأ

(١) الكتب والمقالات التي تبحث أصل اللغة عديدة جداً نكتفي بذلك مقالين جامعين يلخصان للقارئ الذي لا يفهم التبسيط في الموضوع أهم ما قدم من نظريات . المقال الأول تجده في: W. B. Pillsbury and C. L. Meader: The Psychology of Language, PP 112–128 (New York and London 1928),

والمقال الثاني Otto Jespersen Language, its nature Development and Origin, pp. 412–442 (Allen and Unwin, London 1922)

(٢) ويشير إليها ابن جن في كتابه الخصائص المذكور آنفاً في فصل يعنونه : (أحسان الألفاظ أشباه المعانى) . ص ٤٤٥ . وعنه نقل السيوطي في كتابه المزهر المذكور آنفاً ص ٤٨ .

ـ حكاية الصوت ، في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها . ما العلاقة بين لفظه ابريق ومعناها ؟ وما العلاقة بين لفظة المضدة ومعناها ؟ ما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة أma العلاقة فبسيكولوجية ، أى من نوع قرن الأصوات بصور قائمة في العقل .

(ب) نظرية الأصوات التعبيرية العاطفية *Interjections*

وتعرف بنظرية Pooh — pooh . ومفادها أن الكلمات الأولى التي نطق بها الإنسان كانت أصواتاً تعبيرية عاطفية صادرة عن دهشة أو فرح أو واجع أو استغراب أو تقرز أو تأفف . ومثال هذا لفظة «تأفف»، التي استعملناها نحن . عند ما يتألف الآلماني يقول Pfui وعندما تتأفف نحن نقول «أف أو اوف»، وعندما تتحسر أو تتلهف نقول «وى»، وهي لفظة ترد في جميع اللغات السامية ، ويتبعها عادة حرف الجر «ل»، فيقال «وى ل . . .»، وعلى عمر الزمن امتزجت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة «ويل»، كما امتزج اسم الموصول «ما» مع حرف الجر «ل»، فأصبح «مال»، وفي الانكليزية القديمة لفظة تدل على التحسر والتلهف شبيهة بلفظة «ويل»، وهي la — wa إن ما قلناه عن النظرية الأولى ينطبق على النظرية هذه . لأنه إذا استطاعت نظرية كهذه أن تفسر بضعة ألفاظ فإنها تعجز عن تفسير ألف من الألفاظ التي لا نرى كيف يمكن أن تكون في أساسها تعبيرية عاطفية أو مشتقة من عناصر تعبيرية عاطفية . ما علاقة لفظ الحب والبغض والولاء والفييل والمحسان والإنسان بالأصوات التعبيرية العاطفية ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة .

(ح) نظرية Ding-dong

وواعنها ماكس ميلر اللغوي الشهير (١) ومفادها أن جرس الكلمة

(1) F. Max Mueller : lectures on the Science of Language, London 1864,

يدل على معناها . وهي لا تختلف عن نظرية البو - وو . وقد أشار إليها العرب أيضاً بطريقة غير مباشرة عندما أشاروا إلى أن للحروف معانٍ (١) خرف الحاء يدل على الانبساط والسعة والراحة ، وحرف الغين يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن كافٍ غم وغيم وغبن « وغطيبة » . ولكن كيف نفسر لفظة غني وغنج وغلام ؟

ما لا شك فيه أنك إذا نظرت في كلمات عديدة يشتراك فيها فونيم واحد تجد أن معانيها متقاربة . ولكن أن نرد معانى ألف الألفاظ إلى ٣٠ أو ٣٥ فونيم أو وحدات صوتية فإننا لا نفسر أصل اللغة بل نزيد في غموض المشكلة . إذ ذلك أن تسأل كيف تطورت هذه المعانى القليلة التي تمثلها الفونيمات القليلة التي تشكل النظام الصوتي للغة إلى معان لا حصر لها ؟ وهل المفردات العربية المدونة في « لسان العرب » مشتقة من ٢٨ فونيم؟ هذه النظرية لا تفسر أصل اللغة ، بل تزيدها تعقيداً .

#### ( د ) نظرية الرسخابة الصوتية للحركات المضيئة :

وتعزى بنظرية Yo - he - ho وهي المقاطع الطبيعية التي يتفوّه بها الإنسان عندما يستعمل أعضاء جسمه في العمل اليدوي . فكأن هذه الأصوات التي تخرجها عفويًا عند القيام بعمل عضلي عنيف تخفف شيئاً من حدة العمل . ومن هذا القبيل أغنية المجدفين على نهر الفوججا . وأنت إذا وقفت إلى جانب عامل يقطع صخرًا أو شجرة ، أو إذا راقت حدادًا أو مجدفاً أو رجلاً يرفع حملًا فإنك تسمع أصواتاً ترافق حركاته . وفي الحداء وفي الرقص الإيقاعي تسمع أصواتاً تتلاءم والحركات الجسمية . ولكن هذه النظرية أيضاً تفسر جزءاً يسيرًا من اللغة ، ويبيّن السر العميق : كيف نشأت اللغة من هذه الأصوات العفوية التعبيرية التي ترافق حركات الجسم ؟ ما علاقة لفظ الآب والأم

(١) والأفضل أن ينظر في المقطع ، لا في الحروف ، كما فعل الاب ا . س . مرمرجي في كتابيه : معجميات عربية — سامية (جوفية ١٩٥٠) والثانية .

والحنان والجمال والجمال وهذه الأصوات التي هي استجابة للحركات الجسمية؟  
ليس هناك من علاقة ظاهرة.

#### (ه) نظرية إشارات الصوتية:

وللسير رتشار باجت (Paget) (١) نظرية جديدة لم تلاق قبولاً.  
ومفادها أن الكلمات هي إشارات صوتية (Verbal gestures). يقول  
باجت إن الإنسان القديم كان يتفاهم بالإشارة — الإشارة باليد والإشارة  
بتقلص عضلات الوجه — ولكن عندما حاول يستخدم يديه لأمور أخرى  
أصبح يشير إلى الأشياء بأصوات. وما ساعد الإنسان على ترك الإشارة  
اليدوية والملائمة والاستعاضة عنها بإشارة صوتية هو ظلام الكهف ليلاً.  
ففي النهار يرى الإنسان صاحبه ويستطيع أن يقوم بإشارات يدوية ترى ،  
ولكن كيف يتم التفاهم في الظلام؟ عندها بدأ الإنسان بالتعبير عن الأشياء  
بأصوات ، وهذه الأصوات في الفم تحاكي الأشياء المعبّر عنها . وتعرف  
نظريته بنظرية ta — ta أي أنه عوضاً عن أن تشير إلى شيء يدك تشير  
إليه بلسانك فقول ta — ta ويستطيع القارئ أن يرى لنفسه وجه التكلف  
في هذه النظرية التي لا تفسر أصل اللغة ، ولكن حماس صاحبها دفعه لكتابه  
كتاب ضخم في الموضوع .

#### (و) معرفة أصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة:

عندما حلّت رموز اللغات القديمة — السومرية ، البابلية ، المصرية ،  
الحيثية ، الكريتية — وعندما تعرف علماء اللغة إلى اللغات المتأخرة كلغات  
الهنود الحمر والزنوج وأهل أوستراليا الأصليين ، نقول عند الكشف عن  
هذه اللغات ظنوا وهم أن في دراسة هذه اللغات ما قد يجلو الغموض الذي  
يكتمل أصل اللغة . وسبب الوهم ظنهم أن هذه اللغات بدائية وقديمة ،

(1) Sir Richard Paget, Human Speech. London and New-York 1930

إذاً قد يكون فيها عناصر « طبق الأصل » للغة الإنسان القديمة . ولكن الواقع أن هذه اللغات ليست بدائية ولا هي قديمة ، بل حديثة بالنسبة إلى عمر اللغة . فقد أثبتت الدراسات الفيولوجية لهذه اللغات أن وراء كل لغة منها تاريخاً مديداً لا يعلم له بدء ، وأنها ليست بدائية في صرفيها ونحوها وأساليبها ، بل هي نتيجة تطور وتغير مستمران . وقد وصلت إلينا هذه اللغات تامة الترکيب وليس فيها ما يدل على بدائية . اللغة قديمة جداً . يظن أن الإنسان بدأ يتكلم منذ مئة ألف سنة ، وهذه اللغات ، وإن اعتبرناها وهما قديمة أو بدائية ، وراءها عشرات الآلوف من السنين كانت فيها عرضة للتغيير والتطور .

وقد وقع علماء اللغة في القرن التاسع عشر في وهم آخر فاضح ، وهو أن اللغات التي اعتبروها قديمة أو بدائية بسيطة في تركيبها هي أقرب إلى الأصل على اعتبار أن البساطة من ميزات اللغات القديمة البدائية .

كان أستاذنا ادورد ساير ( Sapir ) ، أحد أعلام علم اللغة ، وأحد الثقات في لغات الهندو الصين ، يقص علينا الكثير من الطرائف عن لغات هنود أمريكا . كان يؤكّد لنا هذه النقطة : كلما رجعنا إلى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهر تعقيد وعدم منطق ، وكلما تقدمنا نحو الأعصر الأخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق . يقول إن في لغة قبيلة يانا ( Yana ) في كاليفورنيا نوعين من المفردات ونوعين من التركيب : واحد للنساء وآخر للرجال أي أن لفظة بيت تكون كلمة معايرة في لغة النساء للفظة بيت في لغة الرجال . وهناك لغات لا تعرف لفظاً واحداً عاماً لفكرة عامة ، ولا تستطيع التجريد . فإننا نقول أكل خبزاً وأكل حماً وأكل عباً أما عندهم فلكل نوع من الأكل لفظ خاص به . فإن فعل « أكل » في « أكل عباً » هو غيره في « أكل موزاً » . ولا يقف الأمر عند هذه الغرائب بل نجد أن الفعل الماضي يكون غيره في المضارع وليس كما هي الحال عندنا حيث نقول أكل ياً كل .



الباحثين في نشأة اللغة إلى دراسة لغة الطفل من مراقبة نمو أعضاء النطق وإخراج الأصوات وكيف تكتسب الأصوات معانٍ في الذهن . ولكن دراسة لغة الطفل لم تقدمنا خطوة نحو حل المشكلة : كيف نشأت اللغة . وذلك لأسباب عديدة منها أن الطفل لا يعيد تاريخ نشأة اللغة لأن اللغة مكتسبة لا وراثية . فإنه إذا فصل طفل هندي أو عربي أو ياباني عن بيئته في يومه الأول ووضع في بيئة آخر كان نضجه في برلين أو موسكو فإنه ينشأ لغة ألمانيا أو روسيا . ثم إن أعضاء النطق في الإنسان ليست أصلاً للنطق فإنه كان يوم لم تكن فيه لغة . وهذه الأعضاء التي نسميها أعضاء النطق هي لأغراض جسمية أولًا ثم للنطق ثانية كاللسان والرئة والحنجرة وغيرها . هذه الأعضاء اكتسبت استعداداً أن تلين لعمليات النطق . أما هي في جوهرها فلأغراض جسمية أخرى . وأهم من هذا كله أن لغة الطفل ، وعلى وجه التدقيق الكلمات الأولى التي ينطق بها — لأن ما ينطق به لا ينطبق عليه اسم لغة — ليست أفعالاً ولا أسماء ولا حروفًا ولا جملًا مركبة من مبتدأ وخبر إنما هي أصوات بدائية لأغراض كثيرة وللتعبير عن حالات كثيرة . فقد يحدث الطفل صوتاً يعني « أنا منزعج » هل من يريني؟ وصوتاً آخر يعني : « أنا جائع » . وصوتاً آخر يعني « أنا أتألم من وجع » . نحن نسبغ على هذه الأصوات معانٍ والطفل بدوره قد يقرنها بمعانٍ وبحالات واستجابات ، ولكنه عندما يكبر يعلمه المجتمع أن يقول: أنا جوعان ، أنا متآلم ، أنا سعيد . الخ . فالمجتمع إذا يعطيه اللغة وهو يلعب دور المقلد لا المبتكر الخالق ، وإذا ابتكر أو خلق كلمات مثل كلمة « نبي » في لبنان أو « أنكع » فإننا لا نقبلها منه ونقول له قل « أكل » أو قل « أنا مبسوط » ، إذا دراسة لغة الطفل لا تلقي كثيراً من النور على السؤال الذي عنونا به الفصل : كيف نشأت اللغة ؟ وأنت ترى الآن لماذا لا يدخل عالم اللغة هذه القضية في عداد العلوم اللغوية بل يتركها العلوم أخرى كالبيسيكلوجيا والاترثروبولوجيا والميتوولوجيا ، لأن اللغة لم تبدأ بالمنطق والتفكير إذ لم يكن هناك منطق أو فكر . علينا ،

أن نفتش عن نشأة اللغة في نشأة الأسطورة وتطورها إذ أن الأسطورة واللغة في مبدئها من نسيج واحد ودوافعهما الحياتية من معين واحد<sup>(١)</sup>.

إذا كنا لا نعرف على وجه التدقيق كيف نشأت اللغة فإننا نعرف الكثير عن تطورها ، عن حياتها وموتها ، عن تجزئها إلى لهجات وتجزؤ اللهجات إلى لهجات . ولكن قبل أن نأتي على ذكر هذا أحب أن أقف عند قضية اللغة والعرق والعقلية ثم أطرق لبحث علم حديث العهد له الفضل الأكبر في تغيير وجهة نظر الناس إلى اللغة ، أعني علم اللغة Linguistics ، وما يسر له كثيراً أن جمهورية مصر ، من بين الأقطار العربية ، أول من أدرك أهمية هذا الدرس فأوفدت الطلاب إلى بلاد الغرب ، وعندكم الآن نخبة فاعلة تعنى بهذا الدرس الجليل .

(١) من له رغبة في هذه النظرية الأخيرة عليه أن يراجع دراسة لعالم ألماني :

Ernest Cassirer : Sprache und Mythos (No, IV Studien der Bibliothek Warburg.)

## اللغة والعرق والعقلية

وقد شغلت هذه القضية — اللغة والعرق والعقلية — بالعلماء الملة في القرن التاسع عشر ، إذ حاولوا ، تحت تأثير علم الأنثروبولوجيا ، أن يجدوا علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة أو تلك . وحاولوا أن يجدوا في اللغة انعكاسا للبيزات العرقية والأخلاق والمثل والنظرة إلى الحياة . والدراسات التي عُنى بها بطبعان الشعوب ومميزاتها المبنية على اعتبارات لغوية صرفة كثيرة العدد . وجميعنا يذكر أرنست رينان وحكمه القاسي على الشعوب السامية وعقليتها وصفاتها الخلقية بناء على درس العبرية بوجه خاص .<sup>(١)</sup> وإنى أذكر قراءة مقال لعالم الماني يبحث الفاظاً مختلفة وما تعكسه من صور ذهنية تعكس بدورها عقلية الشعب الذي يتكلم تلك اللغة ، ومن جملتها لفظة *Interessant* رغم أن هذه اللفظة الغريبة لا يمكن أن تنتقل إلى لغة سامية ، وإذا نقلت فإنها تفقد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغربية . ويعزو هذا العجز عن وضع لفظ مدلول له مدلول لفظة *Interessant* إلى طبيعة العقل السامي الذي ينقصه الشغف العقلي واللهة الروحية اللذان تعكسهما اللفظة الغربية . فإذا لا يمكن الشعب السامي أن يكون قد أسرهم في خلق العلم والفلسفة والفن ، لأن أساسـ العلم والفلسفة والفن اللهـ العقلية ، الشغف الروحي ، والرغبة الملحة في استجلاء غواصـنـ الكون .

وكان من حرصهم على هذه الدراسات أنهم حاولوا تصنيفها إلى عائلات ونظر في خصائص كل منها . وقد صنفوا اللغات المعروفة إلى ثلاثة عائلات كبرى :

(١) الفاصلة Isolating

(١) راجـم ردـ تـيودورـ تـولـدـ كـهـ عـلـيـهـ فـيـ مـقـاـلـهـ الرـائـعـ . «ـ الـغـاـتـ السـاـمـيـةـ »ـ الـذـىـ تـرـجـمـ خـصـيـصـاـ لـدـائـرـةـ الـعـارـفـ الـبـرـطـانـيـةـ تـحـتـ عـنـوانـ Scmetic languageـ الطـبـعـةـ الثـالـثـةـ عـشـرـةـ .

(ب) اللاصقة Agglutinative

(ح) المتصرفة Flexional

فالفاصلة هي اللغة التي لا يتغير فيها شكل الكلمة (أو الجذر) إن وقع في التركيب . أما العلاقة الصرفية وال نحوية بين كلمة وأخرى في الجملة فتتوقف على موقع الكلمة في الجملة لا على تصريفها أو حالاتها الإعرائية . واللغة الصينية هي من هذا النوع . فإن الضمير « أنا » لا يتغير شكله ، كما هي الحال في لغتنا العربية ، تبعاً للحالات الإعرائية والصرفية بل يظل على شكله الأول إنما يتغير مرکزه في الجملة . وهذا التغيير في مرکز الكلمة يدل على الحالة الإعرائية أو على الوظيفة النحوية التي تقوم بها الكلمة . وإيضاً للمسألة نقول إن في لغتنا العربية يتغير الضمير « أنا » إلى « ت » في مثل « أكلت » ، ويتغير إلى « ذي » في مثل « أحبني » ، ويتغير إلى « — ئى » في مثل كتاي ، وإذا أكدناه قلنا « إيه ايَّاه » ، أما في الصينية فيقال : « كتاب أنا » ، « كتب أنا » ، « أحب أنا » ، وفي حالة التأكيد « أنا أنا » .

واللغة الإنكليزية تحفظ بعناصر من العائلات اللغوية الثلاث . فهي فاصلة ولاصقة ومتصرفة . ومثال على ميزتها الأولى (فاصلة) هذه الكلمات الخنس التالية : I know, what you mean, I know what you mean عبارات عديدة ولكل عبارة معنى مختلف عن معنى الأولى . ولكن تبقى هذه الكلمات على شكلها . إنما يتغير موقعها في الجملة :

What You mean I know

I know what you mean

You know what I mean

الخ ... What I mean you know

أما اللغات اللاصقة فهي التي لا يتغير فيها الجذر إنما نستطيع أن « نلصق » به ، في أوله أو في آخره ، عناصر أخرى تخلق معان مختلفة . والتركيبة هي من هذا النوع ، وكذلك الإنكليزية فإننا نقول :

reason, reasonable, reasonably, unreasonable, unreasonableness  
 وفي جميعها لم يتغير شكل الجذر الأصلي : reason

أما اللغات المتصرفة فهي التي يتغير فيها الجذر أو تغير حركته ، وقد يتزوج بعناصر أخرى ، أو عناصر أخرى تمتزج به في أوله ووسطه وأخره ، وفي جميع هذه التغييرات يختلف المعنى . وأحسن مثال على تصرف اللغات هو العربية مثل كَتَبَ كُتُبَ كاتب مكتوب استكتب . الخ وقد عدوا هذا النوع من اللغات المتصرفة أرقى اللغات — ربما لأن اللغات الأوروبية متصرفة ! — وحسبوا أن أدنى اللغات هي الفاصلة ، واللغات اللاصقة هي وسط بين الطرفين . وقد قرروا الأولى ، اللغة الفاصلة ، بالمجتمع الحضاري البدائي القائم على وحدة العائلة ، وقرروا اللغة الثانية ، الفاصلة ، بطور البداوة ، وقرروا الأخيرة ، المتصرفة ، بالحضارة الحالية الراقية .

ما لا شك فيه أن كثيراً من مفردات اللغة تعكس إلى حد بعيد محيط الإنسان الطبيعي ، وإلى حد محدود بعض نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية فالعربية مثلاً قد احتفظت بطابعها الصحراوي ، وأثر الصحراء والعيش الصحراوي القبلي الرحل يبدو جلياً في كثير من مفرداتها في لغتنا اليوم . ولكن يجب ألا نترسل في الاستنتاج المبني على نوعية التركيب اللغوي . فإن علماء اللغة اليوم لا يجدون أن التركيب اللغوي يعكس مزايا خاصة أو أنه يدل على طبائع معينة أو أخلاق ومثل علينا أو دينا . خذ مثلاً التركيب اللغوي الذي يدل على الملكية ( وهو في علم النحو الإضافة ) فتحن العرب عبر عن ملكية خالد لكتاب بقولنا : « كتابُ خالد » وعندما يسمع العربي هذه العبارة يفهم طبيعة العلاقة بين الكتاب المحكي عنه وخالد . وإنكليزى يعبر عنها بقوله : The book of Khalid's book أو Khalid's book

ويعبر عنها الألمانى بقوله : Der Buch des Khalids

ويعبر عنها الفرنسي بقوله : Le livre de Khalid

وأن ترى أن الغاية قد تمت في جميع هذه اللغات ، وهى إظهار علاقة

الكتاب بخالد ، ولا اعتبار للشكل الذي لجأ إليه العربي أو الإنكليزي أو الألماني أو الإفريقي للتعبير عن الفكرة . ولا مبرر للقول بأن التركيب العربي أحسن من التركيب الألماني أو أن التركيب الألماني يعكس عصرية لا نجد لها في التركيب الإنكليزي . جميعهم أرادوا التعبير عن شيء واحد وجميعهم نجحوا في التعبير عنه بطريقة فعالة مفهومة عند الناس الذين يتكلمون هذه اللغات المختلفة . إذًا اللغة نتيجة لا سبب ، وأن نعزّو إلى التركيب خصائص عقلية وروحية وأخلاقية فأمر مبالغ فيه جدًا . وعلماء اللغة اليوم لا يشقون بهذه الاستنتاجات اللغوية ، لا بل يخطئون الذين يحاولون أن يروا في اللغة وتركيبها انعكاساً للعقلية والأخلاق . فإن في لغات بعض القبائل المتأخرة في الحضارة تركيب عجيبة ومقدمة على التعبير بيسر وكفاءة تفوق أحياناً اللغة الألمانية .

والخلاصة يجب أن نفرق بين لغة وعرق وحضارة . فهاهم زنوج أميركا يتكلمون الإنكليزية ولا يعرفون لغة غيرها . والهنود الحمر الذين هجروا مواطنهم وانخرطوا في الحياة الأمريكية لا يعرفون لغة غير الإنكليزية . ولو كان للغة خصائص عرقية معينة لا تلائم إلا عرقاً خاصاً أو عقلية خاصة أو حضارة خاصة لما وجدنا أن اللغة الواحدة قد تكون مشاعاً لأعراق عديدة وأدلة حضارات مختلفة .

ليس هناك من لغة لها عصرية تفوق اللغات الأخرى ، وليس هناك من عرق صاف خلق لغة خاصة تعكس عقليته . وكل ادعاء بأن هذه اللغة وتلك أحسن اللغات وأفصح اللغات وأغنى اللغات وأشرف اللغات هو من باب المباهاة . اللغة شيء والحضارة شيء آخر ، واللغة شيء والعرق شيء آخر ويجب ألا يخلط بينها .

## علم اللغة

( Linguistics )

ليس علم اللغة بمفهومه الحديث درس الصرف والنحو والبيان كما يدرس في المدارس الثانوية والمدارس العليا . هذا الدرس هو الجزء الميكانيكي من علم اللغة . ولا يعني علم اللغة بلغة واحدة بل يدرس اللغة بصورة عامة على أنها ظاهرة إنسانية اجتماعية بسيكولوجية ، أو هو جزء من درس المواصلات . وهو علم جليل القدر عظيم الفائدة في توجيهنا اللغوي والفلسفى لأنَّه علم له أوثق العلائق بالفَكْر : الفلسفة والدين والأدب والعلم والفن . وبعبارة أخرى اللغة أساس جميع العلوم الإنسانية ، وهي طريق الإنسان لفهم الكون والحياة .

وقد يسأل أحدهنا : هل تخضع اللغة للعلم ، للعلم التجربى التطبيقي كما تخضع له عناصر الطبيعة القابلة للحكم وللكيف ؟ والجواب عن هذا هو أنَّ علماء اللغة في الربع القرن الأخير حاولوا مخلصين إخضاع اللغة للعلم وقوانيئنه كما حاول ، ويحاول ، علماء الاجتماع إخضاع الظواهر الاجتماعية للعلم . وذلك لأنَّ اللغة ظاهرة بيولوجية اجتماعية بسيكولوجية ، وأسلوب العلم يطبق في هذه العلوم جميعها فما الذي يمنع من تطبيق الأسلوب العلمي على اللغة على أساس أنها شيء يوصف ويحدد ويقييد ويخضع للمختبر ؟

قد يعترض أحدهنا : أنَّ اللغة ظاهرة اجتماعية لا تلين لأحكام العلم الصارمة لأنَّها في جريان أو اندفاع مستمر ( Continuous flux ) وفي تغير دائم . وكل ظاهرة حية متطرورة متغيرة تأبى التقييد . إنما نحن نقييد جميع ظواهر الكون عند استقرارها وثبوتها ، وفي هذا الاعتراض شيء من الصحة ، ولذا يقول علماء اللغة اليوم إنَّ وظيفة عالم اللغة هي في المرتبة الأولى الوصف ( description ) . فإنهم ينظرون إلى اللغة على أنها لغة الساعة التي يصفونها بها ، أو على أنها لغة القرن الرابع أو الخامس أو التاسع عشر . وهذا الوصف الدقيق للغة في نقطة معينة من الزمان والمكان هو العلم ذاته .

ما هو هذا الأسلوب العلمي الذي أكثروا الكلام عنه ؟ إن هذا الأسلوب يتطلب قبل كل شيء موضوعة ( Objectivity ) أي تجربة عن الذاتية ، تجربة عن كل غرض وهو سابق معرفة ، والبدء باللإحاظة والمراقبة وتدريج هذه الملاحظات . وبعد أن يتجمع لدى الدارس مقدار كاف من المعطيات ( data ) يضع نظرية موقته يظن أنها تستطيع تفسير هذه الظواهر التي لا يحظى بها . ثم إنه في الطور الثاني يتقدم لامتحان هذه النظرية ليرى إذا كانت شاملة تعلل جميع هذه الظواهر . وهنا يثابر في التجريب والاختبار حتى يتأكد من صحتها . وكثيراً ما يرى أن عليه أن يعيد النظر في صحة هذه النظرية . ولكن إذا تبين له أنها تستطيع أن تعلل جميع هذه الظواهر فإنه يعلنها قانوناً أو قاعدة عامة . وقد طبق هذا الأسلوب في العلوم الطبيعية أولاً وكان من تأثيره هذه الاكتشافات العلمية الباهرة التي دفعت بالإنسان صعداً في الحضارة الآلية ، وفي سعيه الحثيث للوصول إلى حياة أفضل مادياً وروحياً . هذا الأسلوب العلمي يطبق الآن في درس اللغة . وقد مرّ علم اللغة في أطوار عديدة . وليس لنا أن نؤرخ له إنما ننتقل بكم إلى القرن العشرين . الذي يحق لنا أن نسميه في تاريخ علم اللغة بالقرن الوصفي *descriptive* لأنه لا يعني بالناحية التطورية التاريخية ولا يعني بالناحية البسيكولوجية الفلسفية كما كانت عليه الحال في القرنين السابقين بل تتركز الجهد في وصف اللغة وصفاً علمياً دقيقاً سواء أكان ذلك من جهة الصوت Phonology أو من جهة الشكل Morphology أو من جهة التركيب Syntax . وتمثل مدرسة لندن ، قسم الفونتيك وعلم اللغة ، هذا الاتجاه أحسن تمثيل . فإنك إذا كنت طالباً في هذه المدرسة وشاكلك أن تعرف السبب لماذا ، وكيف ، ولائية غالية حدث هذا في تاريخ اللغة ، ومتى حدث ، لأجابك الأستاذ بقوله نحن هنا لسنا في دائرة التاريخ ! لا يهمنا « لماذا ؟ » ولا يعني بالأسباب والعلل لأننا لا نعرف الأسباب والعلل . لماذا رفعوا الفاعل ونصبوا المفعول به ولم يعكسوا الأمر فنصبوا الفاعل ورفعوا المفعول . ولو أنهم فعلوا هذا

لقلنا المنطق ذاته . يهمنا تقرير الواقع ، اللغة في نظرنا هي اللغة الحاضرة ، لغة الساعة التي أنت فيها ، وعملنا هو أن نصف هذه اللغة على مراتب (١) : مرتبة الصوت ، ومرتبة التركيب ، ومرتبة المعنى ، وغيرها من المراتب . وعندما يتم وصف اللغة ، ومتى تجمعت لدينا جميع المعلومات الأساسية عندها يتحقق لنا أن نعم ، أو أن نشير إلى الاتجاه ، أو أن ننظر إلى التاريخ ، أو أن تتلفت إلى المستقبل . نحن لا ندرس اللغة درسًا حديدياً بل واقعياً .

ما هو علم اللغة وما هي مادته؟ إن علم اللغة من العلوم الحديثة التي لم تستقر بعد ولم تتخذ شكلًا معيناً محدداً كما هي الحال في بقية العلوم . وقد من هذا العلم في طورين : ففي الطور الأول كانت مواد هذا العلم تتحصّر في :

(١) علم اللغة العام General linguistics .

(٢) علم المقابلات اللغوية Comparative philology .

(٣) درس التطور الصرفى والنحوى Historic grammar .

أما في الطور الثاني فقد اشتمل هذا العلم إلى جانب ما ذكرنا حقوقاً أخرى :

(٤) المقل الفيزيائى — البيولوجي .

(٥) المقل البسيكولوجى — الفلسفى .

(٦) المقل اللغوى الصرف من جهة وصفية بحثة لا من جهة فلسفية .

أما علم اللغة العام general linguistics فيعني باللغة إطلاقاً ، أي أنه لا يحصره في درس لغة واحدة بل يتناول اللغة كظاهرة إنسانية اجتماعية ، فيدرس نواميسها العامة من صوت وتركيب وأسلوب ، ثم ينظر في تطورها

---

(١) « مرتبة » ترجمة الملفظ الغربي level . فإنك إذا نظرت في الأصوات التي تتركب منها الكلمة فإن دراستك لها تكون على مرتبة الصوت ، On phonological level وإذا نظرت في مقاطعها فإنك تعنى بمرتبة التركيب المقطعي Syllabic structure وإذا نظرت في الصوت فإنك تدرس اللغة على مرتبة الشكل والبناء Morphological Level . . . . الخ

ونحوها وانحلاها إلى لهجات ، وينظر في أثرها في المجتمع . أما علم المقابلات اللغوية Comparative philology ف يعني بمقابلة لغة بأخرى للوقوف على المشترك وعلى المختلف بينهما . ويدرس التطور الصرفى والنحوى كا يظهر فى مقابلة صرف لغة بصرف لغة أخرى . ويحاول أن يجد في هذه المقابلات ما يلتئم النور على الأسباب والعلل . وأما درس التطور الصرفى والنحوى historical grammar فيعني بدراسة صرف ونحو لغة ما دراسة تاريخية . وقد ينظر أحياناً في الصرف الحى living grammar أي صرف اللهجات ونحوها عله يجد فيه ما يفسر ما غمض في دراسته التاريخية . أما علم اللغة في الفترة الأخيرة فقد تناول ، كما أشرنا ، حقوقاً ثلاثة نحب أن نقف عند كل منها قليلاً لنعرض على القارئ العربي أسلوب الدراسة الغربية الحديثة للغة .

### العقل الفيزيائى — البيولوجي :

وهذه الدراسة تعنى بالأصوات اللغوية من ناحيتها الجسمانية (الفيزيولوجية) والفيزيائية ( Physics ) فإن الصوت بجرى هوائي يبدأ في الرئتين ، إلى الحنجرة ، إلى الفم ، إلى مخرج الفم . ولكن هذا المجرى الهوائي في مسیره من الرئة إلى الشفه يتکيف ويتحوّر ويتغير تبعاً لما يعترض سيره من حواجز وعقبات تضعها في سيره كل من الأوتار الصوتية ، فمؤخر الحنك ، فاللسان فالأسنان ، فالشفتان . وتستطيع أن تدرك هذا نفسك إذا قارنت بين التنفس العادى والنطق بأصوات لغوية . فإنك إذا دفعت بالهواء من رئتيك فاتحا فمك ومانعا الأوتار الصوتية ، ومؤخر الحنك واللسان والشفتين من أن تعترض المجرى الهوائي فلا يحدث في هذه الحالة صوت لغوی ، بل يحدث مانسيمه تنفساً عادياً . ولكن هذا المجرى الهوائي ذاته إذا اعترضه معترض تغير وتحوّر . وعندما نقول أن في اللغة الفلانية ٢٨ أو ٢٩ صوتاً لغوياً فإننا نعني عليهما أن المجرى الهوائي من الرئة إلى الشفتين يتحوّر ويتغير إلى ٢٩ أو ٣٠ صوتاً مختلفاً .

ويلاحظ القارئ أن المدخل الفيزيائي – البيولوجي يتناول الأصوات اللغوية من ناحيتين : فيزيولوجية جسمية وتعنى بعملية التنفس ووصف أعضاء النطق ، الحنجرة والأوتار الصوتية ومؤخر الحنك واللهاة والأنف واللسان والشفتين وكل عضو آخر قد يشترك بعملية النطق . وفيزيائية وتعنى بطبيعة الصوت ( Acoustics ) ودرس الأصوات اللغوية من هذه الناحية يعرف بعلم الفونتيك ( Phonetics ) وهو من الدروس التي تفرض فرضياً على كل من أراد التخصص في علم اللغة ، لأنها درس أساسى . وكما أن الطبيب لا يمكنه أن يصبح طبيباً إذا لم يكن قد اتقن أولاً درس الفيزيولوجيا ، هكذا طالب علم اللغة لا يستطيع تعليل كثير من الظواهر اللغوية كالإعلال والأدغام والإشمام والإمالة والتخفيم والاختلاس والتليل وانحلال النظام الصوتي ونشوء اللهجات إذا لم يكن له معرفة بطبيعة هذه الأصوات وبالنواحيتين التي تحكم فيها .

وليس طالب علم اللغة أن يكون فيزيولوجياً يتخصص في دراسة الجسم كله ، وليس له أن يكون عالماً فيزيائياً . إنما طبيعة اللغة وطريقة النطق بها تتطلب معرفة عامة لفيزيولوجية الصوت وفيزيائيته . وقد أنشأت الجامعات الكبرى دراير خاصة لعلم الفونتيك لها أساتذتها ومخبراتها ومكاتبها . وإذا قيض لك أن تزور إحدى هذه الجامعات وجدت أن مختبر الفونتيك بـ الآلة المصورة والمسجلة وأشعة اكس لا يقل تعقيداً وأهمية عن مختبر الفيزياء . إن دراسة الصوت من ناحيته الفيزيولوجية والفيزيائية تعتبر في علم اللغة مقدمة له ( Prelinguistics ) مقابلة له باللغة ذاتها من حيث هي أصوات تقرن معان ( Linguistics ) ومقابلة لهذين المدخلين بما يسمونه الآن ( Meta-linguistics ) أي ما وراء الظاهرة الطبيعية للغة ، أي علاقة اللغة بالفكرة والأدب والفلسفة .

## الفصل السادس - الفلسفى

وقد أمعنا إلى أهمية هذا الدرس ، درس بسيكولوجية اللغة ، عندما بحثنا « ما هي اللغة ؟ » ، وقد مثلنا للقاريء بحادثة الولد الذى طلب إلى أبيه اقتطاف تفاحة له ، وماذا دار بينهما من كلام . وقلنا إن عملية التكلم ، على بساطتها الظاهرة ، عملية معقدة جداً تتناول الصور الذهنية التى يسببها تأثيرنا بالعالم الخارجى ، والكيفية التى بها تغير هذه الصور الذهنية إلى صور صوتية تعبرية . ( Verbal symbolism ) وقد سألنا أسئلة عددة عما يجرى في الدماغ وكيف يجرى ، وكيف تحضر المتكلم المفردات ، وكيف يكون لهذه المفردات معان مقررة في الذهن ، وما العلاقة بين اللغة والفكر .

وهناك مشاكل بسيكولوجية فلسفية أخرى لها علاقة وثيقة باللغة . ما هي أقسام الكلمة ؟ أتعلم أن علماء اللغة ليسوا على رأى واحد بل تختلف أجوبتهم عن هذا السؤال كثيراً ( من ٢ إلى ٣ إلى ٧ إلى ١٧ ) . ثم ما هو تحديد الفعل ؟ ما هو الاسم ؟ ما هو الحرف ؟ وهل التعريف القديمة صحيحة دقيقة ؟ وما هي وحدة الكلام ، الكلمة أم الجملة ؟ وما هي الجملة ؟ هل صحيح أن الجملة هي المئلفة من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل ؟ وما قولك بجواب مفید مثل « نعم » جواباً من يسألك : هل هذا هو المطعم الذي سنأكل فيه ؟ وقد لا نقول « نعم » بل نكتفى بإشارة بالرأس أو التغيير في الملامح أو بنوع من النحوحة « التي تفيد ماقفيده لفظة نعم . فهل هذه من اللغة ؟ هل « نعم » جملة مفيدة ؟ البسيكولوجي يقول نعم هي رد الفعل لمؤثر خارجي . وهناك قضية المعنى ( meaning ) وكيف يتكون في الذهن وكيف يقرن بجموعات معينة من الفونيات . ثم هناك قضية الفلسفة والمنطق ، هل تصلح اللغة أن تكون أدلة لها أم أنها تعوق التفكير الفلسفى لأنها ظاهرة قديمة نشأت عندما لم يكن هناك فلسفة ؟ وأخيراً ، وهذا أعقد المسائل اللغوية ، هل هناك فكر مجرد أى هل هناك فكر أو تفكير بدون كلمات ؟ جرب أن تفك واسأل نفسك : هل أستطيع أن أفكر وأن أدرك الأمور دون كلمات ؟

إن هذه القضية على غاية من التعقيد والغموض . وإذا أنت راجعت فهرس المكتبة اللغوية (أى الكتب التي تبحث علم اللغة) لوجدت العديد من المجلدات الضخمة الموزعة بين حقول الفلسفة واللغة والبيكولوجي والتربيـة التي تبحث هذه القضية . ولكننا نحن لا نعيرها شيئاً من اهتمامـا . وعلماء اللغة يحاولون أن يجدوا لهذه الأسئلة أجوبة مقنعة . وترابـهم في شـبه تنافـس علىـ مع البيكوليـوجيين الذين يقولـون أن اللغة ظـاهرة بيـكوليـوجـية اجتماعيةـفلـسفـية، إذاً علىـها يـقع فيـ علم البيـكوليـوجـيا . يقولـ علمـاء البيـكوليـوجـيا لـعلمـاء اللغةـ لقد حـاولـتـمـ فيـ القـرـونـ الـثـلـاثـةـ الـآخـيـرـةـ أـنـ تـحلـواـ مشـاـكـلـ الـلـغـةـ وـلـمـ تـفـلـحـواـ فـاتـرـكـوـهـاـ لـنـاـ الـآنـ<sup>(١)</sup>.

### العقل اللغوي الصرف

ومن الناس من ينصرف إلى درس لغة ما دراسة وصفية تقريرية دون النظر إلى الملابسات الاجتماعية والفلسفية والبيكولوجية . فيحصر همه في وصف أصوات اللغة وأحكام التركيب ووضع المعجم (معنى مفردات اللغة) . حسب أسلوب علىـ دقيق .

يفرق دارـسـ اللـغـةـ بـيـنـ «ـ لـغـةـ قـديـمةـ»ـ ،ـ «ـ لـغـةـ حـيـةـ»ـ .ـ فالـقـديـمةـ هـىـ الـتـىـ وـصـلـتـنـاـ مـنـ نـقـطـةـ مـعـيـنـةـ فـيـ الزـمـنـ حـسـبـ نـمـاذـجـ مـدـوـنـةـ .ـ وـاعـتـمـادـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ التـقـليـدـ (Tradition)ـ وـأـحـسـنـ مـثالـ عـلـىـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ الـدـرـاسـةـ الـعـبـرـيـةـ كـمـ تـدـرـسـ فـيـ الجـامـعـاتـ ،ـ أـوـ السـنـسـكـريـتـيـةـ كـمـ كـانـ يـنـطقـ بـهـاـ الـبـرـاهـمـةـ فـيـ الـأـلـفـ الـأـوـلـ قـبـلـ الـمـسـيـحـ .ـ وـالـعـيـبـ فـيـ هـذـهـ الـدـرـاسـاتـ ،ـ فـيـ نـظـرـ عـالمـ الـلـغـةـ ،ـ هـوـ أـنـهـ لـأـتـعـمـدـ النـطـقـ بـلـ الـكـتـابـةـ وـالـكـتـابـةـ غـيـرـ النـطـقـ .ـ الـكـتـابـةـ رـمـزـ للـنـطـقـ .ـ أـمـاـ النـطـقـ الصـحـيـحـ وـالـتـركـيبـ الصـحـيـحـ هـوـ الشـائـعـ عـلـىـ أـلـسـنـ النـاسـ لـاـمـدـونـ فـيـ الـكـتـبـ .ـ وـلـكـنـ هـذـاـ لـاـ يـعـنـيـ إـهـمـالـ درـسـ الـلـغـاتـ الـقـدـيـمةـ أـوـ الـاتـقـاضـ مـنـ

(١) من هذا القبيل كتاب الاستاذ كاتور . J. B. Kantor. An Objective Psychology of Grammar, Bloomington 1936.

قيمتها ، كلاماً اللغة في نظر عالم اللغة هي اللغة كما وصلت إلينا في اليوم الذي فيه ندرس تلك اللغة . اللغة الحية هي لغة الناس .

وإذا فرق عالم اللغة بين قديمة وحديثة فإنه لا يُفرّق في أسلوب الدراسة . وهذا الأسلوب ، الذي تمثله مدرسة لندن أحسن تمثيل ، يعتمد أولاً تسجيل اللغة واللهجة المنوى درسها . فيؤتي بأناس يعتقد عالم اللغة أنهم خير ممثلين لتلك اللغة فيقرأون أو يقصون أو يتحدثون عن أمر ما على رسالهم وبطريقة طبيعية . وفائدة التسجيل هو أن الباحث يستطيع أن يردد على مسمعه لغة المسلمين مراراً وتكراراً وفي أوقات تحلو له . ثم يبدأ بدرس المدحون حسب ما اصطلاحوا عليه بالراتب (levels) فهناك المرتبة الصوتية (Phonological level) أي ضبط دقيق لنظام الأصوات اللغوية واختلاف النطق بالأحرف المسوسة ، وتسجيل أثر حرف في آخر ، وما إلى هذا العلم من قبيل ( وهذا جزء من فونتيك اللغة ) ثم يتلو هذه المرحلة درس شكل الكلمات وصوغها وتصريفها ويعرف بالمرتبة الصرفية level Morphological أي علم الصرف حسب مصطلحنا ثم يتناول التركيب ، والتركيب جوهر اللغة كما قلنا سابقاً . ونعرف بهذه المرتبة بالمرتبة التركيبية Syntactical level . ثم يأخذ بدرس معجمية اللغة lexical level وهناك مرتبة أخرى Semantic level أي المرتبة المعنية التي تعنى بالمعنى وتطوره .

وتحدر بنا الإشارة إلى هذا العلم عند العرب فإنهم كالمهود والإغريق بروزوا في هذا الحقل وذلك لمقام القرآن الكريم في حياتهم الدينية والاجتماعية ولكن ، وهذا مما يؤسف له ، لم يعتبر لغويو العرب اللهجات ، ولم ينظروا إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية حية نامية متطرورة بل اقتصرت جهودهم على درس وتدوين لهجات معينة في الزمان والمكان وحرصوا على ضبط أحكامها وقواعدها لكن لا يجد التغيير إليها سبيلاً . ولكن اللغة لا تعرف التحديد ولا تقبل الجمود ، بل اللغة سهل جار ( Continuous flux ) .

## أثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي

لعلم اللغة الحديث كا وصفناه لك باقتضاب كل في الفصل السابق ، أثر عميق في تغيير نظرتنا إلى اللغة ووظيفتها وأثرها في الفرد . ويحسن بنا ، إيضاحاً للأمر وإيجازاً في البحث ، أن نذكر على شكل نقاط أهم التائج التي أسفر عنها هذا العلم ، والتي كان لها نصيب في تغيير نظرتنا التقليدية القديمة :

- (١) ليس هناك لغة أفضل من لغة .
  - (ب) اللغة مجرى .
  - (ـ) لا اعتبار لكتابه وقواعدها في علم اللغة إنما الاعتبار للفظ .
  - (د) اللغة أكثر من فوئيات .
  - (هـ) ليس للغة كيان بدون الإنسان .
- (١) ليس هناك لغة أفضل من لغة :

لقد أثبتت علم اللغة الحديث أن اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع إنساني . وهي ظاهرة إنسانية لا علاقة لها بالآلة ، ولم تهبط من على ، بل نشأت من أسفل ، وتطورت بتطور الإنسان ذاته ، ونمط بنمو حضارته . وليس هناك من مبرر للمفاضلة بين لغة وأخرى ، لأن يقول أحدهنا أن في الألمانية عبرية لا تجدها في الإفرنجية ، وفي الإفرنجية مقدرة على التعبير لا نجدها في التركية . لكل لغة عبريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع . وليس قضية قضية لغة أفضل من لغة بل قضية حضارة وحياة أغنى من حياة .

وكذاك لا مفاضلة في أصوات اللغة لأن يقول أحدهنا إن في الإيطالية أصواتاً أعزب موسيقى من أصوات العربية . فالذى نعده نحن البعض عذوبة

في الصوت قد يعده المندى الأحمر قبحاً وخشونة ، وما نحسبه بياناً وفصاحة قد يرى فيه الزنجي غبوضاً وتعقيداً .

ولا مبرر للقول بأن مفردات لغة ما أكثر عدداً من مفردات لغة أخرى . إذ قد يكون عندنا ، نحن البيض ، للصورة الذهنية لفظة خاصة تعير بها عنها ، بينما نجد أن الصفر أو الحمر أو السود من البشر لا يشعرون بأن هذه الصورة الذهنية تحتاج إلى لفظة خاصة ، بل قد يعبرون عنها بطريقة أخرى مخالفة ولكن فعالة . قضية المفردات لا تدخل في صميم اللغة . فنحن نباهى مثلاً أن للشيء الواحد عندنا أسماء عديدة ، ولل فعل الواحد أفعالاً عديدة ، ولكنَّ غيرَنا يرى في ذلك إسراها . والمفردات تهرم وتموت ويحل محلها مفردات أخرى . وقد تقتبس اللغة مفردات حضارة أخرى أرقى . وهذا نكرر القول أن القضية ليست قضية مفردات بل قضية شعب راق أو شعب متاخر ، وعند ما يرتقى الشعب ويتحرر أفراد المجتمع من قيود الرجعية والتقليد تستطيع كل لغة أن تسير الحضارة بلسانها الخاص . قد يجد المجتمع نفسه مضطراً للتوايد والترجمة والاقتباس ، ولكن هذا لا يضر اللغة بل يزيدها غنى .

### (ب) للغة مجرى :

لكل لغة مجرى تجرى فيه حتها . وهذا المجرى يتشعب إلى مجار آخرى مختلفه . وكلما بعد المجرى عن نقطة الانطلاق ازداد التباين والتغير . منْ منْ عامة الناس يصدق أن الأرمنية والإيرانية والروسية والألمانية والإيرلنديّة واليونانية واللاتينية والإنجليزية على ما بينها من تباين واختلاف ظاهرين في المفردات والصرف والنحو والأصوات وأساليب التعبير ، يقول منْ من الناس يصدق أن هذه اللغات تمثل مجرى متشعبه من مجرى واحد ؟ وقل مثل هذا في اللغات السامية ، فإن العربية والعبرية والبابلية والفينيقية والسريانية والحيثية تمثل مجرى متشعبه من مجرى واحد .

ولايق الأمر عند هذا الحد بل إن هذه المجرى تشعب بدورها إلى مجال جديدة . فن اللاتينية تحدثت لغات حية هي الفرنسيّة والإيطالية والاسبانية ، وهذه بدورها ستترسخ إلى لهجات متعددة يموت بعضها بانحلال المجتمع ويعيش بعضها الآخر بهاءه ونموه .

فاللغة تشبه تلك الشجرة التي تتدلى فروعها إلى أسفل فلامس التربة وترسل في الأرض جذوراً تصبح أشجاراً فتة فيما بعد . وقد تموت الشجرة الأم ولكن من فروعها تنشأ أشجار جديدة .

وإذا قلنا إن اللغة تموت ، فإنما تقصد بالموت التغير الكلي الذي يطرأ على المجتمع ، والتبدل الجندي في الحياة وفي الظروف الحبيحة بالحياة إلى حد نستطيع فيه القول إن لغة اليوم هي مغايرة لغة أمس .

#### (٤) روايات الكتابة وقواعدها في اللغة ، إنما ارعنبار للنظر :

ليست الكتابة من جوهر اللغة . اللغة أقدم من الكتابة ، والكتابه عرض . اللغة مجموعة أصوات لغوية ، والكتابه رمز لهذه الأصوات شأنها في ذلك شأن رمز قصة موسيقية .

الرموز الموسيقية ليست الموسيقى . وقد تكون رموز الكتابة حروف لاتينية أو عربية أو هندسية شكلها أجمل من شكل الحروف الحاضرة ، وقد نرمن إلى الفونيم بشكله اللاتيني N أو بصورته الكتابية في اللغة الصينية لا فرق في ذلك كله على شرط أن يكون لهذه الرموز المختلفة قيمة صوتية مصلحة عليها .

ونمثل لك على صحة هذا — من أن الكتابة عرض والنظر جوهر — بمثال من لغتنا العربية . فن المقرر المعروف أن كتابتنا العربية غير المشكلة أشبه بهيكل حظني للكلمة لا حياة له إلى أن يسبغ القارئ عليه حياة ياعنة الحركات وإخراج النطق الصحيح . وينطبق هذا القول ، إلى حد ما ، على

جميع اللغات ولكن ظاهر الوضوح في العربية الحالية من المحرف المصوّته . خذ مثلاً جملة «من علني حرفاً صرت له عبداً»، فإنها بمجموعة حروف صامتة لا يمكن أحد الناس أن يقرأها ما لم يكن يعرف سابقاً أنها كيت وكيت في اللّفظ . ويدرك القارئُ هذا الأمر بوضوح إذا كتبنا الجملة بالحرف اللاتيني فإنها تكون هكذا : MN, Imni HRf srt, Iho 'bd .

وظاهر أن كتابتها لا تدل على لفظها مطلقاً ، إنما يستطيع العرب قراءتها لأنهم يعرفونها سابقاً . إذا الكتابة ليست اللغة بل اصطلاح لتدوين ألفاظ اللغة ، وقد يكون هذا الاصطلاح حسناً ينقل اللّفظ بيسر ووضوح كما هي الحال في الحرف اللاتيني ، وقد يكون اصطلاحاً غير موفق كما هو في الكتابة الصورية ، أو كما هو في الحرف العربي الخالي من الحركات .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن اللغة لا تعرف الجمود ، فهي أبداً في تغير مستمر بينما الكتابة جامدة ثابتة محافظة . ولذلك ترى فرقاً عظيمَاً بين الكتابة واللّفظ ، ذلك لأن اللّفظ يتغير ولكن محافظة الإنسان على شكل الكتابة يجعلها تتسمّع في المؤخرة . فالإنكليزي يكتب *laugh* ويلفظ *Laf* ويكتب *through* ويلفظ *Thru* . وكذلك الأفرنسي فإنه يكتب *Il mangent* ويلفظ *manj il* . وعند ما تهب طبقات الشعب مطالبة بالتيسيير هنا وفي إنكلترا وفي فرنسا تصطدم برجعيّة عنيدة . ولكن سيأتي يوم ، وهو قريب ، عند ما يدرك كل إنسان ، وليس علماء اللغة فقط ، أن الكتابة عرض واللّفظ جوهر . وهذه القضية ، بالنسبة إلىنا نحن العرب ، أمر يجب أن ندركه على وجهه الصحيح لأن حرفنا من أعقد مشاكل اللغة .

يأخذ علماء اللغة المعاصرُون على الصرفين الكلاسيكيين مبدأ اعتبارهم الكتابة مقاييساً للغة بغاية أكثر قواعد الصرف والنحو في كثير من اللغات قواعد كتابة لا قواعد نطق وفهم وإفهام . ولقد فات الصرفيون القدماء أن المكتوب محيط ثابت وأن اللغة جسم حي نام متتطور . وكل قانون مبني على المحيط الثابت يؤدي بنا إلى نتيجة مختتمة : فرق شاسع بين

المكتوب والممروء . الصرف يحمد اللغة ويوقفها عند حد معين ، وهو في عمله هذا كرجل يضع سياجاً من قصب في وجه دبابة من فولاذ .

#### (د) اللغة أكثر من فونيات :

ليست اللغة مجموعة كلمات مركبة من فونيات ، ولن يست اللغة رموزاً كتابية . هذه من اللغة ، وجزو هام من اللغة ، فضلاً عن هذه ، حياة . فإذا عند ما تتكلم لا تفوه بسلسلة من كلمات على نغم واحد دون إحساس أو شعور كآلية ميكانيكية تردد أصواتاً لا حياة لها . كلا ! بل في اللغة عنصر هام هو العنصر الإنساني الذي يضفي على اللغة مسحة من تأثير السحر والجمال .

هل سمعت شاعراً يلقي قصيدة هو ذاته ؟ خذ القصيدة ذاتها واقرأها أنت لنفسك ثم اصح إلى ناظمها يقرؤها فإنك تجد فرقاً عظيمًا بين قراءتك إليها وبين قراءة الشاعر . الفرق في العنصر الإنساني . فإذا عند ما تكلم نرفق كلامنا ، وبدون تكلف وتصنع ، بشيء من الإحساس والعاطفة والصوت المنخفض أحياناً والقوى أحياناً أخرى ، والنغم ، والنبرة ، والإشارة الحقيقة باليد ، والانفعالات التي تظهر في ملامح الوجه ، جميع هذه تكسب اللغة شيئاً من السحر ، وأحياناً تكلم وكأنَّ الجسم كله يشتراك في هذه العملية . ثم إننا نخاطب الصقل بلغة وبنغم مختلفان عن لغتنا ونغمينا عند كلامنا مع الرئيس أو الصديق أو الحبيب أو الخادمة . هي الإضافات هي من صلب اللغة ولكن لا تظهر كتابة أنها من اللغة . وإذا كنت في شك من ذلك — من أنها جزء من اللغة لا ينفصل عنها — نمثل لك بمثيلين من الحياة : المسرح وقراءة الأولاد في قاعة الدرس .

أذكر أنني شهدت رواية تمثل على مسرح من مسارح لندن ، وقد أحبب بها الجمهور إلى حد أن الرواية تمثل منذ سنتين . وأذكر أنني قبل مشاهدتها الرواية قرأتها في طبعة رخيصة من النسخة شلن . ولا أظن أنني استمتعت

بقراءتها ولا أخذت بها فيها من أحاديث ونكات ، من جنون وفلسفة ، من كذب وصدق ، من رياه وإخلاص . ولكن شعرت شعوراً مختلف تماماً الاختلاف عند ما شهدت الرواية على المسرح . استمتعت كثيراً وضحكـت كثيراً وفـكرـتـكثيرـاًـ وتأثرـتـكثيرـاًـ . ولـماـذاـ؟ـ ذلكـلـأـنـيـعـندـماـقـرـأـهـاـ لـمـأـلـسـالـعـنـصـرـالـإـنـسـانـيـ ،ـأـمـاـعـلـىـالـمـسـرـحـ فـأـشـخـاصـالـرـوـاـيـةـأـحـيـاءـيـتـكـلـمـونـ وـفـيـكـلـامـهـمـ حـيـاةـ ،ـوـأـحـيـانـاـكـثـيرـةـلـمـيـتـكـلـمـواـ ،ـولـكـنـالـجـهـورـكـانـيـقـرأـ ،ـ يـقـرأـ بـوـضـوحـ ،ـمـاـيـحـوـلـ فـيـعـقـولـهـمـ وـقـلـوـبـهـمـ مـنـأـفـكـارـ وـعـاطـفـةـ .ـكـانـتـ عـيـونـهـمـ وـمـلـامـعـ وـجـوـهـهـمـ وـحـرـكـاتـأـجـسـادـهـمـ تـكـلـمـ .ـلـيـسـالـلـغـةـ فـوـنيـاتـ فـقـطـ ،ـلـلـغـةـ حـيـاةـ وـهـيـالـعـنـصـرـالـإـنـسـانـيـ .ـ

هل دخلت غرفة درس وأصغيت إلى الأولاد يقرءون ؟ هناك معلمون ومعلمات أدركوا أن القراءة الفعالة هي التي يكون فيها العنصر الإنساني ظاهراً قوياً مؤثراً ، فيصلب المعلم أو المعلمة إلى التلاميذ أن يرفعوا الصوت هنا وأن يخفضوه هناك . هنا سؤال وهناك جواب ، هنا شدة وهناك لين ، هنا فرح وهناك حزن ، هنا استعفاف وهناك طلب ، وفي جميع هذه الحالات يجب أن يظهر المعنى بواسطة إضافة العنصر الإنساني الذي لا تراه في السطر أمامك .

وما يؤسف له أن مدارستنا العربية لا تزال القراءة نوعاً من الترديد الميكانيكي وعلى نغم واحد مزعج من أول الصفحة إلى آخرها .

#### (ه) ايسى للفـةـ كـيـانـهـ بـدـوـرـهـ اـلـرـئـاسـيـ :

وهذه حقيقة لا تحتاج إلى إقامة دليل ، فإنها أقرب إلى البديهيات منها إلى الأمور التي تتطلب البرهان ؛ فالبابلية ، مثلاً ، كانت لغة راقية يتكلم بها قسم كبير من سكان الشرق الأدنى وكانت كتابتها محترمة متبعة في أقاليم عدّة ، وخلفت آثاراًكتابية تتسع لوضع معجم كبير ، ولكن اللغة البابلية ماتت

لأن الذين كانوا يتكلمون بها انقرضوا أو اندمجوا في حضارات أخرى . ذلك لأنه لا كيان للغة بدون الإنسان .

ويترتب على هذا القول تائج بعيدة الأثر ، وأبعدها أثرا إعادة النظر في فلسفة النحو المبنية على فكرة العامل – العامل اللغوي والعامل المعنوي – فقالوا أمثلاً إن سبب الأعراب العامل ، فالرفع والنصب والختض لا يكون إلا بعامل ، وسبب المنع من الصرف علة من العلل ، وسكون لام الفعل في مثل « أكلت وأكان » ، لاتصاله بضمير صحيح . بكلام آخر عزوا هذه الظاهرة اللغوية أو تلك لأثر الكلمة في الكلمة . فإن « إن » تنصب المبتدأ وترفع الخبر « كان » ترفع المبتدأ وتنصب الخبر فكأن للكلمة سحرا .

وما تجدر الإشارة إليه أن بعض الصرفين والنحوين لم يقبلوا بهذا المنطق فإن ابن جنى في « خصائصه » يقول مامعنده أن الرفع والنصب والجزم مرده إلى المتكلم نفسه لا لشيء غيره . أى أن الإنسان هو العامل الأول والأخير في عملية النطق . وقد ألف مفكر عربي ؛ ابن مضاء القرطبي كتاباً في هذا الموضوع سماه « الرد على النحاة » حاول فيه أن يدحض المنطق الذي كان يتمسك به النحاة فإنه يقول إن العامل هو الإنسان ذاته . ليتصور القارئ ماذا يتربت على هذه النظرية الصحيحة للغة في تدريس اللغة . فهو ضا عن أن يقول للتלמיד في إعراب « العلم نافع » العلم مبتدأ مرفوع بالابتداء (عامل معنوي ) يقول العرب تقول هكذا ولا تعليل آخر . وفي جملة « إن الصق吉ل ، الصقس منصوبة لأن العرب هكذا قالوا وكفى .

ولاني أذكر بهذه المناسبة بعض ما كان ينشأ من جدل بيني وبين الأستاذ فرث Firth من جامعة لندن عند ما كنت أحضر مجلس تعليميه (Seminar) . فإني كنت أطلب جواباً على « لماذا ؟ » ، « ما السبب » فكأن يجيبني الأستاذ « السبب بسيط جدا : الإنسان ! وأى تعليل آخر هو حدس وتخمين أو تقويل في أمور لا نعرف لها سبيلا » .

اللغة من الحياة الإنسانية وبدون الإنسان لا كيان للغة فإن عاش عاشت وإن مات ماتت .

## لغة ولهجة

يحدُر بنا قبل أن نبحث نشوء اللهجة أن نعرف هاتين اللفظتين . فإن أول ما يتطلبه العلم التحديد والوضوح في المصطلحات . ما الفارق بين لغة ولهجة ؟ وقد يعجب القارئ لهذا السؤال فإن الفرق عنده واضح ظاهر . ولكن على ضوء علم اللغة ليس الفارق بينهما بالأمر الواضح الظاهر ، إذ لا يفرق علم اللغة مبدئياً بين لهجة *dialect* ولغة *literary language* كل لهجة هي لغة قائمة بذاتها ، بنظامها الصوتي وبصرفها وبنحوها وبتركيبها وبمقدرتها على التعبير .

قد يعترض أحد الناس على هذا الزعم بقوله إن الفرق بين لهجة ولغة هو في الأدب . اللغة هي التي لها أدب . أى أن الأدب مقاييس للتفرقة . وهذا الزعم مردود ، فإن لهجات الزوج والهنود الحمر واللهجات الأقوام المتعددة لها أدبها : شعرها ونثرها وقصصها وأمثالها وأساطيرها وأغانيها . وقد يختلف هذا الأدب في غناه الروحي والعقلاني والجمالي عن آداب الشعوب التي خطت خطوات واسعة في عالم الفكر والفن والفلسفة والعلم ، ولكن ذلك راجع لأثر الحضارة في الاجتماع . هذه الأقوام التي تتكلم لهجات لا يروق أدبها لنا إذا أتيح لها أن تأخذ بقسط من الحضارة فإن هذه الآداب تتغير في روحها ومادتها وشكلها .

وقد يقول آخر : اللغة هي التي تغير لغة أخرى بأصواتها وبفرداتها وبتركيبيها معايرة لا يستطيع معها أن يتفاهم زيد وعمرو . أما إذا كانت الفروقات في الأصوات والمفردات والتركيب من النوع الذي يمكن فيه التفاهم بين الجماعات فإن هذه تحسب لهجات . أى ، بعبارة أخرى ، يضع صاحبنا التفاهم مقاييساً للتفرقة بين لهجة ولغة ، ولكن هذا الزعم يسقط

من تلقاء نفسه إذا لاحظنا أن التفاهم من الأمور النسبية التي تتبع ذكاء الطرفين واتباههم؛ وهو قد يتيسر أو يتعرّض لأسباب تعود إلى أحوال المتكلّم والمخاطب.

وقد يقال لنا أخيراً إن الفارق بين لهجة ولغة هو أن اللهجة تقهر وتحطّط لغوي من لغة فصحي. وقد وقع في مثل هذا الوهم لغويو العرب قديماً وحديثاً. فإنهم ينظرون إلى العامية على أنها احتطاط وتقهقر، ولكن أثبتت دراسة اللهجات، وبطريقة لا يتسرّب إليها الشك. أن اللهجة قد لا تكون تقهّراً ولا احتطاطاً لغوياً *Linguistic degeneration* بل تطوراً لغوياً فرضتهما النواميس الطبيعية التي تحكم بمصير كل لغة. وأفضل دليل على أن اللهجات ليست احتطاطاً لغوياً في كل الأحوال، هو كون بعضها سابقاً في الزمن للغة الفصحي. خذ مثلاً كسر حرف المضارع في العامية فإننا نقول «يُكتب يُشرَب»، ولكن كسر حرف المضارع (وهو لغة قديمة) سابق في الزمن للفترة التي اعتبرت فيها لغة قريش اللغة الأدبية الفصحي، فكيف يتحقق لنا أن نعتبر هذه الظاهرة – كسر حرف المضارع – احتطاطاً لغوياً؟ وما لا شك فيه أن لهجة الألمان في سويسرا وألمانيا الالزاس وورتربرغ هي أسبق في الزمن من لهجة لوثر التي اعتبرت بعد ترجمة التوراة لغة ألمانيا الفصحي – أو على الأقل لا علاقة لها بها – فكيف يتحقق لنا أن نقول إن لهجة سويسرا الألمانية ولهجة الالزاس الألمانية ولهجة الغابة السوداء هي احتطاط لغوي من لغة فصحي ظهرت في التاريخ بعد ظهور تلك؟ الحقيقة التي لا مراء فيها هي أنه لا فارق جوهري بين لهجة ولغة إنما الفارق هو أن لهجة ما، ولسبب خارجي، أو لظروف خاصة، تعتبر لغة قومية رسمية، بينما لهجة أخرى، ربما أفضل منها، لا يعترف بها. فلو أن التوراة الألمانية مثلاً ترجمت إلى لهجة برلين وكانت لهجة برلين الألمانية الفصحي لا لهجة هانوفر. إذاً القضية قضية «سلعة علينا»، وقضية اعتراف بهذه السلعة. ما هي هذه «السلعة العليا»، التي ترفع لهجة ما إلى مصاف اللغات القومية الرسمية، والتي تهمل لهجة أخرى فتعتبر لغة رديئة؟

## السلطة العليا

إن التاريخ يُعِّج بالأمثلة الناطقة على فعل السلطة العليا في رفع لهجة ما إلى مرتبة لغة قومية رسمية . وكنا نود أن نأخذ بالتفصيل تاريخ كل لغة قومية ونبينَ كيف ارتفعت هذه اللغة من لهجة وضيعة إلى لغة أدبية . ولكن سرد حقائق التاريخ الجادة أمر يرهق أكثر الناس . فضلاً عن أن هذا يتضمننا جهوداً نحن في غنى عنها ، لأن الواحد منا يستطيع ، إذا أحب ، أن يراجع تاريخ كل لغة في الموسوعات أو في الكتب التي تبحث تاريخ تلك اللغات وآدابها . إنما سنكتفي بذكر نبذة عن بعضها إيضاحاً لما نحن بصدده .

تكون السلطة العليا في اللغة أحدَ هذه العوامل :

- (أ) عامل عسكري – سياسي .
- (ب) عامل ديني .
- (ج) عامل أدبي .
- (د) عامل اجتماعي طبقي .

وليس من الضروري أن تكون السلطة العليا عاملًا مفرداً ، أي مكوناً من عامل واحد ، بل قد يتداخل عاملان أو ثلاثة في تكوين هذه السلطة . وسنمثل لك على كل من هذه العوامل .

(أ) عامل عسكري – سياسي :

وأفضل مثال على ذلك اللهجات الروسية ، التشيكية والبلغارية والصربيّة . إن هذه اللهجات روسية ، ولكنها أصبحت لغات «رسمية» ، معترفاً بها بفضل عامل سياسي أو عسكري – سياسي . فإنه عندما استقلت هذه البلدان عن روسيا أصبحت هذه اللهجات الإقليمية لغات قومية «أدبية» ، معترفاً بها . ثم اعتبر لغة أسبانيا الأدبية . ما هي ؟ هي لهجة الطبقة العسكرية التي

أبلت في حروبها ضد العرب ، وتعنى بها الجيوش القسطلانية . فقد احتلت قسطلانيا ، بفضل هذه الحروب التي شنتها على العرب ، مقاماً عسكرياً سياسياً في بلادها غير منازع ، وأصبحت قسطلانيا اللغة الرسمية للسلام . والناس على دين ملوكهم ، ولكنها في الأصل لهجة لاتينية يشوبها بعض عناصر لغوية محلية .

واعتبر كذلك لغة الرومان : اللاتينية . ما هي ؟ هي لهجة من عشرات اللهجات التي كان يتكلّم بها أهل إيطاليا القدماء قبل ظهور الرومان كامبراطورية عالمية . هي لهجة مدينة روما وبفضل مركز روما العسكري والسياسي أصبحت لهجة روما لغة الرومان القومية الأدبية ، وانتشرت في العالم بفضل الاتصارات العسكرية التي أحرزها الجيش الروماني .

#### (ب) عامل ربّي :

وأفضل مثال على فعل العامل الديني نشوءُ اللغة الألمازية الفصحي واللغة العربية الفصحي . وجميعنا يعرف شيئاً عن تاريخ الحركة الإصلاحية ، وكلنا نذكر لوثر وخروجه على الكنيسة الكاثوليكية . فقد أرتأى لوثر بأن أفضل سلاح يستطيع به أن يحارب الكنيسة هو ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة الناس ليقرئوه . فإن اللاتينية لم تكن لغة الحياة ، ولم يستطع الناس أن يقرءوا كتابهم الديني . وبما أن لوثر كان من مدينة هانوفر فإنه ترجم التوراة إلى لهجة مدینته متحدياً بذلك سلعة الكنيسة . وقد أعجب الناس بهذه الترجمة السلسة القراءية إلى عقولهم وقلوبهم ، وعلى مر الزمن اعتبرت اللغة الفصحي . ويسمّيها الألمان لغة المسرح .

وليس لنا أن نعيد على القراء خبر ارتقاء لغتنا العربية الفصحي من لهجة حجازية نجدية إلى مرتبة أدبية سامية بفضل نزول القرآن الكريم بها ، لأن هذا من الأمور المعروفة التي لا تحتاج إلى تعلق . واللغة العربية مدینة بحياتها وباحفاظها بشكلها القديم للقرآن الكريم .

## (ج) عامل أدبي :

والأمثلة على كون السلطة العليا أدبية كثيرة ، شخص بالذكر منها اللغة اليونانية الكلاسيكية ، لغة أفلاطون وأرسطو . فإن هذه اللغة كانت أصلاً لهجة أهالي أتيكا في القرن الرابع ق. م وظلت اللغة الرسمية إلى القرن التاسع بعد المسيح . وعندما انتقلت هذه اللهجة إلى شواطئ آسيا الصغرى – أيونيا – أصبحت تعرف باللغة الأيونية الرسمية ، وهي التي كتب بها هيرودوت . أن الذي فرض هذه اللهجة هو ما دون بهذه اللهجة من أدب وعلم وفلسفة .

ومن هذا القبيل لغة إيطاليا الحديثة فإنها اللهجة فلورنسا ، أو بالأحرى اللهجة التي كتب بها أدباء وشعراء أمثال دانتي وبترارك وپوكاتشيو .

## (د) عامل اجتماعي أو طبقي :

وأفضل مثال على ذلك اللغة الفرنسية أو بالأحرى لغة باريس بعد القرن السابع عشر . فإن اللهجة باريس (أو مجتمع باريس) أصبحت المثال الأدبي الرفيع الذي ينبغي لكل كاتب ناشيء أن يحتذيه .

ومن هذا القبيل لغة الانكلترا وإنها كانت على وجه التدقير اللهجة المحكية في المد لندن *Midlands* وهي مزيج من النكلوسكوفي قديم ونورماني وما أضيف إليها من مصطلحات علمية من الإغريقية واللاتينية . وقد أصبحت هذه اللهجة اللهجة لندن<sup>(١)</sup> والمجتمع اللندن الرأقي . وهي اللهجة تعرف بـ انكليزية الملك ولا يغرب عن بالنا أيضاً اللغة الروسية الأدبية

(١) أما اليوم فإن انكليزية لندن لا تعد المقياس الأدبي في صفاء اللغة إن كان ذلك من جهة النطق أم من جهة التعبير ، وذلك لخليط الناس في هذه المدينة . ويجب ألا ننسى المنافسة بين مدينة وأخرى . فإن أهالي أوكسفورد وكبريج يعتقدون أن لفظهم هو أفضل لفظ وتعبيرهم أصنف وأبلغ تعبير .

فإنها لغة أهل موسكو . ذلك لأن أدياً نابغاً ، ليونوف ، كتب بها وأعجبت كتابته أهل موسكو فاقتدى به الكُتاب والشعراء وأصبحت فيما بعد اللغة الروسية الفصحى .

لقد ذكرنا هذه الأمثلة لنوضح أن اللهجة تصبح لغة بفضل سلطة عليا تفرضها . وتكون هذه السلطة عسكرية أو دينية أو أدبية أو طبقية . أما اليوم فما هي السلطة ؟ في كل أمة من أمم الأرض جماعة ، وجماعة كبيرة ، تقول إن السلطة هي للتقليد tradition هي للسلفية ، هي لغة التاريخ ، اللغة التي تحدرت إلينا بشكل شعر أو نثر وقصص وأغان ، وكل خروج عن التقليد يعد خروجا على الاجتماع . وأشد ما يكون الناس رجعية في نظرهم إلى اللغة ولذا ترى هذه الجماعة السلفية شديدة المحافظة في كل قطر . فمن ذا يجرؤ في إنكلترا مثلاً أن يكتب thru بدلاً من through و laf بدلاً من laugh ؟ ومن يجرؤ في إنكلترا — هذا إذا أراد أن يحتفظ بمركزه الاجتماعي الأدبي — أن يقول I ain't عوضاً عن I am not I وقل مثل هذا في ألمانيا وفرنسا وفي كل بلد يعني بلغته ويغتر بأدبها . لا نعتقد أن الفرنسي المعروف بدقة التفكير وحسن المنطق ، الفرنسي الذي أعطى العالم النظام المترى ، يتنازل يوماً عن المعادلة  $4 \times 20 + 11 = 91$  مستعياً عنها بوضع لفظ خاص للتسعين فيقول ٩١ .

## كيف تنشا اللهجة

أما مؤرخو العرب وصرفوهم فقد أشاروا إلى اللهجات العربية إشارات عابرة<sup>(١)</sup>. ولكنهم لم يحاولوا الإجابة عن السؤال ، كيف نشأت؟ فقد تكلم الكسافي ، تبين الخليل عن لحن العامة (وله في الموضوع كتاب مخطوط) وذكر الماجحظ كثيراً من التوارد اللغوية التي تتكسر لحن العامة وبعجمة بعض الناس . وتكلم ابن خلدون عن «فساد الملك» ، «ولغة الأنصار» ، وتكلم غيره عن «لغات فاسدة» ، وعن «الرطانة» ، «والعجمة» . ومنهم من أشار إلى اللهجات بآذانها وقرنوها بأسماء تميزها كالكشكشة والعنعة والضمصمانية وغيرها كثير<sup>(٢)</sup> . وجل ما يفهم من كلامهم أن اللهجات العربية هي انحطاط لغوی Linguistic degeneration فهم من هذا القبيل يتذمرون إلى المدرسة التي تتول إن اللهجة انحطاط لغوی . وقد أشرنا سابقاً إلى فساد هذا الرأى ، وقلنا إن علم اللهجات قد أثبت بطريقة لا يتسرب إليها الشك أنه ليس ضرورياً أن تكون اللهجة انحطاطاً من لغة فصحى . فقد تكون أقدم منها في الزمن ، أو قد تمثل تطوراً وتقديماً لا انحطاطاً . فإذا علينا أن نحمل هذا الزعم وأن نقتنص عن سبب نشوء اللهجة الحقيقى . وننحن نعتقد أن في مقدمة الأسباب ثلاثة عوامل :

(أ) المغایرة الفردية .

(ب) اتساع الرقعة الجغرافية .

(ج) احتكاك لغة بلغة أخرى .

(١) وقد جمع هذه الإشارات العابرة مستشرق الماني أسمه Johann Fueck في كتاب له نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار «العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب» طلقة ١٩٥١ مطبعة دار الكتب العربي .

(٢) الحصائص لأبن جني ص ٤١٠-٤١٢ وعنه أخذ المسوطنى في الزهر من ٢٢١-٢٢٦

## (١) المعايرة الفردية :

لقد أثبتت لنا علم اللغة أن لكل إنسان لهجته الخاصة ، وأن هناك لهجات في اللغة يقدر ما هنالك من أفراد يتكلمون هذه اللغة ! وهذه أول مفاجأة يفاجئنا بها علماء اللغة . يقولون لنا إن المجتمع الذي يتكلم أفراده لغة واحدة لا وجود له . وإذا أبدت شيئاً في ذلك، أدخلوك إلى مختبر الفونتيك وقالوا لك أجلس أمام هذه الآلة المسجلة وتلتفظ بهذه العبارة : « ما أجمل الصق », ثم بعد ربع ساعة يقولون لك تعال سجلها لنا مرة أخرى . ثم يتركوك تقابل بين تسجيلك الأول والثاني . وستجد لنفسك فروقاً . ولكنها فروق لا تستطيع الأذن تمييزها ، إنما الآلة تستطيع ، وإذا أصررت في المعاندة أدخلوك إلى غرفة مظلمة وطلبوها من صديقين لك ، لا علم لك بوجودهما هناك ، أن يتكلما . فإنك تعرف حالاً أن صاحب الصوت هذا هو فلان ، وصاحب الصوت ذاك هو فلان . فإن هناك تبايناً ظهرآ في اللفظ وفي الشدة واللين والنبرة والنغم وربما في انتقاء المفردات وفي تركيب العبارات .

تعرف هذه الظاهرة في اللغة المغايرة الفردية . ولا تظن أن هذه المغايرة تعمدية ، كأن يكون أحدهنا متهدلاً أو متشدداً أو متجرجاً في لفظه ، كلا ، إنما هذه المغايرة الفردية طبيعية عفوية . ولا نعلم السبب في ذلك كما أنها لا نعلم لماذا لا تشبه حبة قمح حبة أخرى في عرمة من القمح . ولا يولد ولد يكون صورة طبق الأصل لأبيه أو لأمه . فـ الطبيعة تكره الوحدة Uniformity الطبيعة تميل إلى المغايرة . وهذه المغايرة الفردية في اللغة ، جيلاً بعد جيل ، ترك أثراً في اللغة . ونحن على يقين أن العرب الأحياء يقررون الفصحى على غير ما كان يقرؤها النصائح في العصر الاموى . أما من جهة التكلم فظاهر أن لساننا العربي اليوم غير لسان العرب في الأمس البعيد .

أخالك تقول : إذا ، حسب هذا الرعم ، تتجزأ اللغة بعد جيل أو جيلين إلى لهجات لا حصر لها . كلا . ذلك لأن هناك ، مقابل هذا الميل العفوی

إلى المغايرة الفردية ، ميلا آخر نحو النورم<sup>(١)</sup> . ولكل لغة نورها الخاص . فإن أفراد المجتمع ، عن غير وعي ، يميلون إلى البقاء ضمن نطاق نورم اللغة . قد يكون السبب في ميلنا غير الوعي للبقاء في النورم اللغوي خوفنا من أن نخالف ما عليه الجهور ، أو قد يكون إصلاح الخطأ الذي يحرص الآباء والجيل القديم على أن ينبهوا عليه الجيل الجديد رادعاً عن الخروج من النورم ، أو قد يكون السبب خوفنا من المهزء والسخرية ، أو قد يكون تهرباً من أن نرمي بالتحذلق والتشدق والمغايرة لا لسبب سوى أن يقال عنا إننا مختلف عن الآخرين . وقد يكون هناك أسباب بسيكولوجية أخرى لا نعرف لها تعليلها . والأسباب لا تهمنا بقدر ما يهمنا تقرير الواقع وهو أن في كل لغة حية قوتين متضادتين ، الأولى تدفع بالفرد عن المركز Centrifugal والأخرى تشده نحو المركز Centripetal . وهذا الشد بالفرد نحو المركز والدفع به عن المركز يخلقان نوعاً من التوازن اللغوي الذي يعرف بالنورم . وهذا مما يتحقق اللهجة ضمن نطاق معين إلى حين يُؤثر عميليه التجزو والسريع .

### (ب) انساع الرقة الجغرافية

ذكرنا سابقاً أن اللغة يجري طبيعياً تسير فيه . وقد تحافظ اللغة على أصواتها وعلى صرفاها ونحوها وتركبها زمناً طويلاً إذا ظل المجتمع الذي يتكلم هذه اللغة مجتمعاً صغيراً قريباً من الموطن الأول ، أو إذا ظلم ترابطاً متهاساً متجاذساً على ذاته ، تشد أفراده بعضهم إلى بعض عوامل اقتصادية وروابط وأمان مشتركة . ولكن هذا لا يعني أنه لن يطرأ تغيير ما . كلا . بل يكون التغيير طفيفاً وبطيئاً ويظهر أثره في الحال . أما إذا انحدر المجتمع إلى مجتمعات بسبب ضعف الروابط التي كانت تربصه سابقاً أو بسبب

(١) وهو النموذج العام ، أو القياس المشترك المتفق عليه في المجتمع ، أو العام المألوف أو الطابع المميز . وسنستعمل لفظة نورم بشكلها الغربي تختصاً من صعوبة الترجمة أو إلى أن يتفق العرب على ترجمة لها . ونحن إذا عجزت اللغة عن الترجمة فإننا لا نستكف عن الإقتباس .

فقدانها ، فإن المجرى يميل إلى التشعب والانقسام ، وعندما تظهر الفروقات اللغوية بسرعة ووضوح . ولكن يجب أن نلاحظ أن المهاجرين أو النازحين عن أوطانهم إلى أوطان جديدة يحتفظون في الوطن الجديد بميزات لغوية قديمة قد تكون اندرت وتلاشت في الوطن القديم كما حدث في فرنسية مونترال (كندا) فإنها تحافظ بعناصر لغوية تعود إلى القرن السابع عشر وليس لها من وجود في لغة فرنسا الأم . وكذلك في برتغالية البرازيل ، فإن فيها عناصر لغوية قديمة لن تجدها اليوم في لغة البرتغال الأم . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن فقدان الأعراب من لغة الكلام وظواهر لغوية أخرى ككسر حرف المضارع من الأمور السابقة للهجرة العربية إلى مواطن جديدة ، وليس نتيجة العوامل التي ظهرت بعد الفتح والاحتلال بامم جديدة .

إن اتساع الرقعة الجغرافية يعمل على تشعب المجرى وتجزئته إلى بحار صغيرة مختلفة .

### ( ج ) انتقال لغة بلقة أخرى

عندما تدخل لغة جديدة إلى بقعة جغرافية جديدة فإنها لا تدخل إلى فراغ لغوی . يجب أن يكون هناك قوم أو أقوام يتكلمون لغات مختلفة . وفي هذه الحالة يحدث واحد من أمرين : إما أن تغلب لغة الفاتح فتحل المرتبة الأولى وتصبح لغة البلاد الرسمية ، أو أن تغلب لغة الملعوبين بفضل تقدمهم في الحضارة ، أو بسبب قلة أفراد الجماعة العسكرية المحتاحة . وفي الحالتين يطرأ تغيير في اللغتين سواء ألماتت الأولى أم انتصرت الثانية . إن نتيجة هذا الصراع اللغوي الثقافي يظهر في اللغة . وأفضل مثال على هذا احتكاك العربية بالأرامية والإيرانية .

بدأ تعرب سوريا قبل الفتح العربي . ولم يكن من الصعب على اللغة العربية ، نظراً للتعرب ونظراً للقرب العرقي واللغوي بين الآراميين والعرب ، أن تفرض ذاتها بفضل العامل الديني والعسكري . وقد كان

احتكاك العرب الثقافي بأهل سوريا القدماء قديم العهد يظهر لك في كثير من المفردات الثقافية والزراعية والدينية التي هي من أصل سرياني.<sup>(١)</sup> فكان من الطبيعي أن يعترى العربية المحكية تغير كبير في الأصوات والتراكيب والتعابير ، سواء أكان المتكلمون من العرب أم من أهل البلاد . أثر السريانية ظاهر في عربية سوريا ولبنان المحكية وهذا أمر طبيعي . فعندما يقول اللبناني أو السوري أو العراقي : « شفتوا لاخوك أو لخليك » ، فإنهم يتكلمون لهجة مفرداتها عربية ولكن تراكيتها سريانية فصيحة . هكذا يجب أن يقال في السريانية . فكأنه يصعب على الناس أن ينسوا نسياناً تماماً ما يسميه علماء اللغة نماذج لغوية Speech Patterns . وقد نبه أكثر من مستشرق إلى أثر السريانية في اللهجة اللبنانية السورية العراقية ( موطن الآرامية القديمة ) شخص بالذكر منهم العالم اللبناني المنسنior فغالي الذي كان أستاذآ للغات السامية في جامعة بوردو في فرنسا . وفي كتبهم ما يعنينا عن الإسهاب<sup>(٢)</sup> .

أما احتكاك العربية بالإيرانية فلم يكن له من أثر في التركيب نسبة لاختلاف العائلتين اللتين تنتسبان إليهما . ولكن التفاعل الحضاري بين فارس والعربية ظهر في المقتبسات من المفردات التي تدل على نوعية التفاعل . فإن العربية مثلاً اقتبست كلمات عديدة لها علاقة بالطبخ وفن الطبخ ، وبالمنزل وأثنائه ، وبالدواوين الحكومية ومصطلحاتها ، وبالنظام الاقتصادي والعسكري . وكذلك أخذت الفارسية عن العربية أكثر مما أعطتها ، فإن الفارسية تعج بالمفردات العربية الدينية والفلسفية والصرفية والنحوية ، غير

(١) راجع كتاب Siegmund Fraenkel : Die aramaischen Fremdwörter in Arabischen , Leiden 1886.

(٢) راجع كتاب Mgr. Michel Feghali : Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban , 1923 , Paris.

و كذلك راجع Etude sur les emprunts Syriaques dans les parlers Arabes du Liban , Paris 1918.

أنه لا أثر لتفاعل لغوى في التركيب (الصرف والنحو) .

\* \* \*

قد لا ترضى عن هذه الأسباب التي تعمل على نشوء اللهجة : المغيرة الفردية ، واتساع الرقعة الجغرافية واحتكاك لغة بأخرى . فقد تقول ، مثلاً ، أليست العناصر الإنسانية في التغيير اللغوى أشد فعلاً من العناصر الخارجية : الطبيعية والجغرافية ؟ أو ليست هذه العوامل إنسانية أى أن مردتها الآخرين للإنسان ؟

إن علماء اللغة يسلّمون بأن للطبيعة أثراً في اللغة : المناخ والطوبغرافيا والطعام وخلافها ، ولكن هذا الأثر طفيف ويظهر في المفردات لا في التركيب . ولذلك ترى أن علماء اللغة يميلون إلى تعليل التغيير اللغوى عن طريق العنصر الإنساني . هناك نواميس لغوية تحكم بمصير اللغة ولكن هذه النواميس — إذا صح أن نسمّيها نواميس — مردها في آخر الأمر إلى الإنسان ذاته . هذه النواميس اللغوية هي :

(١) تغييرات في لفظ الحروف المصوّتة (الحركات) .

(ب) تغييرات في لفظ الحروف الصامتة .

(ح) تغييرات في المفردات من جهة المبنى والمعنى .

(د) تغييرات في التركيب .

ويحسن بنا أن نأخذ كلًا منها بشيء من الإسهاب .

(١) تغييرات في لفظ الحروف المصوّتة (الحركات)

والحروف المصوّتة أكثر الفونيمات تعرضاً للتغيير ، وهذا التغيير يضيق على اللهجة المحكيّة مسحة يجعلها مغايرة تمام المغيرة للغة الأدبية . ألا ترى الفرق العظيم بين حركات **اللغة العربية المحكيّة** وبين حركات **العربية الفصحى** كما يجب أن تكون عليه عند قراءتك قراءة فصيحة ؟ إن حركات **العربية الأصلية** ثلاثة ، قصيرة وهي **نـاهـة** ، وتمثلها الفتحة والكسرة والضمة

وطويلة إذا تبعها الف ، ياء ، وواو فتصبح  $\hat{\text{u}}\text{â}$  . ولكن الحركات في العربية المحكية أكثر من ثلاثة . فإنه فضلاً عن هذه فإن هناك حركات معايرة للفصحي :  $\text{oô}$   $\text{ey}\text{êy}$   $\text{êy}$  وربما غيرها كثير . ثم اعتبر لفظ المقطعين – و  $\text{aw}$  كاف في يوم و  $\text{i}$  كاف في بَيْت ، فإنها في أكثر اللهجات العامية أصبحتا  $\text{ê}$  و  $\text{ô}$  كاف في  $\text{yôm}$  و  $\text{bêt}$  . واعتبر كذلك اختلاس حركة وإطالة حركة أخرى خلافاً لما هي عليه في الفصحي . ففي الفصحي نقول أكتب وفي العامية «كتوب» ، وفي الفصحي نقول قم وفي العامية «قوم» . وهل سمعت أناساً يلفظون  $\hat{\text{u}}\text{â}$  ؟ أصح إلى **أهل الكورة** (في لبنان) يقولون « طروبليس وجوهل وعوكل » بدلاً من طرابلس وجاهل وعاقل .

وهناك قضية لم يعطها لغويو العرب حقها من العناية ، حتى أنهم لم يضعوا لها لفظاً خاصاً بها ، ونعني قضية النبرة accent وأثرها في الحركة من حيث الطول والقصر . فمن قوانين التركيب المقطعي للكلمة (syllabic structure) أنه إذا كانت الكلمة مركبة من مقطعين الآخرين منها طويل الحركة ، ووُقعت النبرة على المقطع الأول فإن المقطع الثاني الطويل يصبح قصير الحركة كما حدث في لفظ الكلمة Friday المركبة من مقطعين Friday (الآخر طويل الحركة) . ولكن النبرة على المقطع الأول ولذلك اختلست حركة المقطع الآخر فأصبح قصيراً ، فيلفظها الإنكليز Friaidi . ويقول اللبناني كتب ولكنه يقول «كتب له» إن حركات اللغة تنتقل من جيل إلى جيل بالتقليد . ولكن مهما حرصنا على أن يقلد الجيل الجديد الجيل القديم تقليداً تاماً في لفظ الحركات وفي النبرة فإن هذه تظل عرضة للتغيير . وسبب التغيير هو العنصر الإنساني : الشذوذ ، الفردية ، المعايرة ، الكسل ، أو أمور انسانية أخرى نجهلها<sup>(١)</sup> .

(١) بعض المدارس اللغوية الحديثة ، مثل مدرسة جامعة لندن ، ترفض رفضاً باتاً الدخول في « لماذا ؟ » « ولأى سبب ؟ » و « ما هو التعليل » يقولون إن عمل عالم اللغة هو وصف ما يجري أو وصف ما هو واقع وليس له أن يفسر هؤلاء يعرفون بالوصفيين (descriptivists) . وعذرهم في ذلك أننا لا نعلم لماذا يحدث التغيير .

## (ب) تغيرات في لفظ الحروف الصامته :

ويطرأ تغيير في لفظ الحروف الصامته . فإن حرف الثاء - خلا في مجتمعات عربية قليلة كالمجتمع الدزرى في لبنان - فقد قيمته اللفظية الأولى Tb وأصبح تاء ، وفي بعض كلمات سنا كافية « حيس وبخيس » عوضاً عن حيث . وأصبحت القاف همزة في بعض الأوساط ، وجما مصرية في أوساط أخرى ، وقسم من أهالى بيروت يلفظونها كافاً . وقد استبدل حرف الذال بالدال وبالزاي فيقال « كذاب وكزناب » . ويقولون « ذلك والرّزى » عوضاً عن ذلك والذى . والعراقي لا يفرق حتى في الفصحى ، بين ض وظ .

لماذا تحدث هذه التغيرات ؟ ما الأسباب ؟ هل لأن حرفآ أشهى أو أعدب من حرف آخر ؟ علم اللغة لا يأخذ بالرأى القائل أن حرفآ أسهل من آخر . هل للبيئة من أثر ، أم هو العنصر الإنساني الذي ذكرناه سابقاً ؟

إن علماء اللغة اليوم لا يهمهم تعليم الأسباب بقدر ما يهمهم وصف الواقع . فاننا نعرف مثلاً قانوناً صوتياً في اللغات السامية لا يتغير وهو أن الثاء العربية يقابلها حرف الشين في العبرية والتاء في السريانية فيقال :

ثاب (عربي) شاب (عبراني) قاب<sup>(١)</sup> (سرياني)

لماذا ؟ لا نعرف . ونلاحظ كذلك في اللغات الهندوجermanية قوانين صوتية<sup>(٢)</sup> ثابتة . مثلاً نلاحظ أن الكلمات الانكليزية التي تبدأ بحرف f يقابلها في اللاتينية أو الإغريقية p فيقال :

father : pater  
fine : pente

لماذا ؟ لا نعرف . إنما يهمنا تقرير الواقع وهو أن الأحرف الصامته ، والأحرف المضمة ، عرضة للتغيير ، وعمل دارس اللهجات أن يسجل هذه المظاهر ويحاول أن يضبطها في شبه أحكام .

(١) إذاً ثاب إلى ربه توبة ليس عربياً بل سريانياً . يجب أن يكون في العربية ثاب .

(٢) كالقوانين التي وضعها العالم الألماني Grimm وتعرف بقانون Grimm .

## ( ح ) تغيرات في المفردات صورة المبني والمعنى :

أما في المبني فيكون التغيير نتيجة قلب مثل (أجا) بدلًا من جاء ، (وخر ووغر) عوضاً عن حفر ووقع . أو نتيجة زيادة مثل رسجال بدلًا من رجال ، أو نقصان مثل مرأه عوضاً عن امرأه ، أو نتيجة نحت مثل (جاب) المنحوتة من جاءب (واصطفل) المنحوتة من اصطف ل .

ويحدث تغير في معنى المفردات . وهذا أمر معروف . فإنك إذا أخذت المعجم العربي — مثل لسان العرب — وراجعت بعض المفردات لأخذك العجب من بعد الشقة بين مفهومها الآن وبين مفهومها في الصدر الأول . اعتبر مثلاً لفظ الباخرة والقاطرة والجريدة والمذيع والماتف والسيارة والمحرك والتيار . . . الخ ، وما يُؤسف له أن قاموسنا العربي لا يؤرخ لنا معنى الكلمات ، أى تطور المعنى على مر العصور كما يفعل القاموس العصري للغة العصرية كقاموس أكسفورد للغة الانكليزية . فإنك إذا فتشت فيه عن معنى كلمة بسيطة مثل nice لوجدت أن هذه المفظة مرت في أطوار عديدة وفي كل طور كان لها معنى مختلف قليلاً ، وأحياناً كثيراً ، عن المعنى السابق .

## ( د ) تغيرات في التركيب

وأكثرها راجع لفقدان الإعراب ، إذ من المعلوم أن في اللغات المعربة تدل علامات الإعراب على وظيفة الكلمة في الجملة بقطع النظر عن موقعها ، وقد تكون الرغبة في حرية التصرف في ترتيب الكلمات عاملاً من عوامل نشوء الإعراب ، أى إفساح المجال للتكلّم أو الناظم أو المغني من أن يغير مركز الكلمات في الجملة على أن تقرن هذه الكلمات بعلامات فارقة تدل على الوظيفة التي تقوم بها في الجملة . وذلك لأن العلاقة بين أجزاء الجملة ، في أبسط تركيبها ، كانت تظهر في الترتيب : الفاعل أو لاثم الفعل ثم المفعول به . ولكن إذا أردنا ، لسبب ما ، أن نغير التركيب وجب علينا أن نجد علامات فارقة لأجزاء الكلمة للدلالة على وظيفتها في الجملة . في العربية ، وهي لغة معربة ، نجد آيات كهذه :

إِنَّمَا يَخْشِيُ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (قرآن ، سورة فاطر الآية ٢٥) .  
 إِنَّ اللَّهَ بِرَبِّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (قرآن ، سورة التوبة ، الآية ٣)  
 وَإِذَا بَتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ (قرآن ، سورة البقرة ، الآية ١١٨) .  
 في هذه الجمل ، وفي أمثلها . يتوقف فهم المعنى على علامات الإعراب .  
 وعليه فليس من الضروري أن نحافظ على ترتيب موقع الكلمات . إذ قد يأتي  
 الفاعل في آخر الجملة والمفعول به في أولها . ولكن إذا سقط الإعراب  
 وجب التعمير عن فقدانه ، ويكون التعمير أبداً في تغيير التركيب ، أي  
 بتغيير موقع الكلمة في الجملة . في عبارة أخبر خالد أميناً . . . إذا سقط  
 الإعراب يصعب علينا أن نميز بين الخبر والمحبَّ . ولكن في العامة حلَّت  
 المشكلة بتقديم الفاعل أبداً فنقول « خالد أخبر أميناً » .

إن اللغة ، كجسم حي ، تخضع للنوايس الطبيعية من حياة ونمو وتطور ،  
 وهي شأن كل ظاهرة طبيعية تتبع في جريانها الجهة التي تلقى فيها أقل مقاومة  
 ممكنة (Line of least resistance) (واللغة ظاهرة انسانية تميل إلى الاقتصاد ،  
 وبكلام آخر ، نستطيع أن نعمم القول بأن اللغة في جريانها تسير .

من الصعب إلى السهل  
 من الحشنة إلى الناعم  
 من المعقد إلى الميسر  
 من المزخرف إلى البسيط

ولذا تنشأ على مر الأجيال لهجات مخالفة للغة الأدبية التي توقفَ سيرها  
 الطبيعي بوساطة سياج شائك من الأحكام وأضوابط .

[إنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفَرْوَقِ الَّتِي تَشَاهِدُ بَيْنَ الْلُّغَةِ الْفَصْحِيِّ وَبَيْنَ الْلُّهُجَاتِ الْعَامِيَّةِ ،  
 إِنَّمَا تَنْتَجُ مِنْ حَاجَةِ النَّاسِ إِلَى التَّعْبِيرِ عَنْ أَفْكَارِهِمْ بِسُهُولَةٍ وَبِسَاطَةٍ وَوَضُوحٍ ،  
 وَمِنْ نَزُوعِهِمْ إِلَى الْاِقْتَصَادِ فِي الْكَلَامِ .]

ونذكر من قبيل المثال : إهمال الإعراب ، واختصار الصرف والنحو ،  
 والاستغناء عن المترادفات : ]

## ١ - فقدان الإعراب .

إن فقدان الإعراب — نتيجة طبيعية من تأمجي السير نحو الأسهل :

إقرأ في مقدمة ابن خلدون ص (٥٠٨ - ٥١١) واقرأ مقدمة ابن قرمان الأندلسي<sup>(٢)</sup> تجد أن النقطة على الإعراب قد يهُ العهد . وهذا هم العرب نراهم قد أسلقو الإعراب منذ الصدر الأول . وإذا صح الخبر عن أبي بكر أنه كان يقول : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فالحن »<sup>(٣)</sup> وإذا صح الخبر عن رجل قرأ القرآن في حضرة النبي فلحن فقال « أرشدوا أخاكم » ، وإذا صح أن عمر بن الخطاب كان يضرب أولاده على اللحن ولا يضرهم على الخطأ ، فإنه يمكن اتخاذ هذه دليلاً على أن الإعراب لم يكن متسلكاً في لغة الناس قبل ظهور الدعوة . ولا تظنين أن الناس أسلقو الإعراب عمداً ، أو خروجاً على نورم اللغة ، أو مشاغبة ، أو شعوبية ، كلاماً سقط الإعراب من تلقاء ذاته ، كما سقط في سائر اللغات السامية وغير السامية . ونحن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن إسقاط الإعراب من لغة الناس المحكية سبق نزول القرآن الكريم ، غير أن القرآن الكريم ، نزل بلغة الأدب والشعر والدين لذاك العصر ، ومن الطبيعي ، لا بل من الضروري ، أن ينزل بلغة الأدب والشعر والدين<sup>(٤)</sup> ونعتقد أن المجتمع

(١) طبعة بيروت ، المطبعة الأدبية ، ١٨٧٩ ، وموضوع الفصل التاسع والثلاثون : في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مصر وغيرها . والفصل الأربعون : في أن لغة أهل الحضرة والأوصاف لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مصر .

(٢) لديوان ابن قرمان نسخة خطية وحيدة في لينيجراد . وفي الجامعة الأمريكية نسخة فوتوغرافية عنها . يحمل ابن قرمان في مقدمة الديوان جملة شعواء على الأعراب .

(٣) يقول إذا ، وبخط تحتها ، لأن الحديث ينسحب إلى كثرين . فإنه ينسحب إلى كثرين . فإنه ينسب إلى الشعبي : راجع « الإرشاد » لياقوت الجزء الأول من ٢٦ . والغريب أن الفراء يروى حدثاً عن أبي بكر ينافي الحديث السابق الذي نحن بصدده وقال أبو بكر الصديق رحمة الله إن إعراب القرآن لاحب إلى من حفظ بعض حروفه » راجع Paul E. Kahle Cairo Geniza P. 116 (London 1947) .

(٤) يعتقد بعض المستشرقين أن لغة القرآن العربية مبنية على قوانيين اللغة العربية التجدية البدوية كما ترافقها في الشعر ، وإن قواعد الإعراب وضعت في القرن الثاني . وقد جاهر

الإسلامى الأول ، نسبة لاعجابه بهذه اللغة ، ونسبة لمقام القرآن الكريم في نقوسهم ، جهدوا أن يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية . ي ذلك على ذلك مبلغ الجهد الذى أنفق في سبيل ضبط أحكام هذه اللغة ، وفي محاربة اللحن ، وفي إصرار المقامات العليا على أن تكون هذه اللغة لغة الدواوين والكتاب والمشائين . وضع سياج حول اللغة للحفاظ عليها أمر طبيعى ، لا بل ضرورة ، لكل أمة ناشئة . الدولة الناشئة بحاجة إلى لغة قومية ، لأن اللغة القومية من مقومات الأمة كالشعب والبقعة الجغرافية والدين وإلى ما هنالك من مقومات .

ونحن لا نعترض على الحفاظ على لغة كلاسيكية لما فيها من كنوز ، إنما نعترض على المبدأ القائل بأن قوانين اللغة من صرف ونحو وأساليب ، لا تغير ولا تبدل « كشريعة مادى وفارس » وذلك لأن اللغة تتغير ، شيئاً أم أبينا .

إن كثيراً من اللغات الكلاسيكية كانت معربة كاللاتينية والإغريقية والسنكريتية . ويظهر أن الإعراب ميزة من ميزات اللغات القدية . ولتكن إذا أخذنا اللغة عامة وجدنا أن الميل هو لإسقاط الإعراب . فلن

= بهذه النظرية مستشرق ألمانى عام ١٩٠٥ في مؤتمر الاستشراق الذى انعقد في الجزائر ، واسمه كارل فولرز ، ثم أنه وضع نظريته هذه بعد تعزيزها بشواهد من القرآن ومن القراءات ، في كتاب *Volkssprache Und Sahrifsprache im*

*Im Alten Arabien ( Strassburg 1906 )* . وقد رد عليه شيخ المستشرقين ثيودور نولدكه في

*Neue Beiträge Zur Semitischen Sprachwissenschaft P. Iff ( Strassburg 1910 )* .

ويحسن عن يهمه هذا الأمر أن يقرأ Paule E. Kahle في .

(1) *The Cairo. Geniza on P.P. 78 — 84.*

والنص العربي المعزو إلى القراء من ١١٥ — ١١٦ .

(2) *The Arabic Readers of The Koran ( Journal of Near Eastern Studies, 8, April 1949 , PP 65 — 71 .*

(3) *The Quran and The Arabiya ( Goldziher ' Memorial PP. 103 — 182 .*

اللغات السامية لا نجد لغة معربة سوى العربية الفصحى . قد تجد في هذه وتلك بقایا إعراب ولكن تستطيع أن تعمم القول في أن اللغات السامية ( باستثناء العربية الفصحى لـ المحكية ) أسقطت الإعراب . وكذلك أسقطت اللهجات التي تحدرت من اللاتينية كثيراً من الظواهر الإعرائية ، وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات في مجرىها الطبيعي .

#### (٢) التطور الصرف والنحو :

ولا يسعنا في هذا المقام تعداد الفروقات البينة بين صرف العامية ونحوها وبين صرف الفصحى ونحوها .<sup>(١)</sup> إنما نريد أن نؤكد أن صرف العامية ونحوها يمثلان تطوراً نحو الأسهل . فاقتصر العربية المحكية على عدد قليل من الضمائر ، وتصريف الفعل ، واستعمال أسمى الفاعل والمفعول ، وصوغ المجهول ، وإهمال حروف كثيرة والاستعاضة عنها بعده أقل ، وغيرها كثير ، جميع هذه في نظرنا تمثل تطوراً طبيعياً في اللغة يتمشى مع حاجات الحياة . وليس على المرء الذي يشك في هذا الزعم إلا أن يطالع بعض ما كتب في اللهجات العربية المختلفة .<sup>(٢)</sup>

ونود أن نمثل على ذلك بناحية واحدة هي « فكرة الزمن في الفعل » ، أن الذين درسوا اللغات السامية عامة وقابلوها باللغات الأوروبية شعروا - ولا يمكنهم إلا أن يشعروا - أن فكرة الزمن في الفعل السامي غير محددة تحديداً دقيقاً كا هي الحال في اللغات الهندو - أوروبية . في الساميات ترتكز فكرة الزمن عامة على إنجاز الفعل أو إتمام الحدوث لا على فكرة الزمن ذاته . فإن كان الفعل أو الحدوث قد تم فهو ماض وإن لم يكن قد تم

(١) من يعتقد أن العامية لا صرف لها ولا نحو فليراجع كتاب المنسنور ميشال فغالى أستاذ اللغات السامية في جامعة بوردو .

Syntaxe des Parlers Arabes Actuels du Liban, Paris 1923 .

(٢) وأكثر المؤلفين من الفرنجية : ألمان وافرنسيين وانكليز وإيطاليين وأوروبيين من جنسيات غيرها ، ونستطيع أن نقول أن جل اللهجات العامة قد درست دون صرفها ونحوها وأساليب التغيير فيها .

فهو حاضر . ولم تعرف اللغات السامية غير هذين الزمين باستثناء العربية : ( التي هي أحدهما تاريخاً وأدباً ) فإنها استطاعت ، بفضل أفعال مساعدة وحروف ، أن تتصرف بفكرة الزمن تصرفاً أفضل من بقية اللغات السامية . ولكن رغم هذا فإن تحديد الزمن في اللغات السامية يقصر عما هو عليه في الانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

لكن العافية ، التي لم تخضع لأحكام الصرفين وال نحوين بل جرت على ألسنة المتكلمين بها جريانها الطبيعي الحتم ، استطاعت أن تعبر عن الزمن وأن تحدده تحديداً دقيقاً . فإن الذين درسوا اللهجات العربية لاحظوا أن جميع صيغ الأزمان الأوروبية لها مائتها في صيغ الأزمان في العافية العربية . وليس ذلك نقاً واقتباساً عن الفرنجة إنما مرده إلى طبيعة الإنسان عامة وإلى المشترك في تفكيره وتصوره .<sup>(١)</sup>

### (٣) - خصوص العافية لناموس الاقتصاد

من أهم التوايميس اللغوية الطبيعية — ولن نذكر لك جميعها لأن هذا يقتضينا الخروج عن الموضوع — ناموس الاقتصاد . الاقتصاد في اللغة مبدأ عام ، والاقتصاد جوهر من جواهر البلاغة . اعتبر مثلاً عدد الضمائر في الفصحى (١٤) وعددها في العافية (٨) ولماذا ؟ لأن المثنى سقط ، والمثنى ظاهرة لغوية بدائية ترجع إلى أول عهد الإنسان بالعدد ، وقد سقطت هذه الظاهرة من أكثر اللغات التي كان فيها مثنى لأن ليس له ضرورة . كل ما زاد على واحد فهو جمع . وأسقطوا جمع ضمير المؤنث . وهذا الاقتصاد في عدد الضمائر أحد أحدث اقتصاداً عظيماً في تصريف الفعل ، فعوضاً عن أن نصرف الفعل مع ١٤ نصرفه مع ٨ ، وفي الأمر عوضاً عن ٦ نكتفي بثلاثة فنقول : قوم ، قومي ، قومو .

(١) راجع كتاب فعال المذكور أعلاه ، ص ٣ — ٨١ حيث يبحث الفعل وقد عزز ذلك بكثير من الشواهد المستمدّة من لهجة لبنان الشهالية . ولكن ما يصدق على هذه اللهجة يصدق على غيرها من اللهجات المحكمة إلى حد بعيد .

واعتبر مثلاً عدد الكلمات فأنه في الزمن الذي كان الناس فيه يتلرون بهلوانيات اللغة كان للأسد أسماء لا يحضرني حدها ، وللناقة أسماء عديدة ، وكان للسيف أسماء يصل عددها إلى المئات ، وكان للعسل ما يقرب من السبعين إسماً ، وبطرس كرامة نظم قصيدة ( أمن خدتها الوردي افتاك الحال . . . ) يكاد عدد أبياتها يقرب من المائة وكل بيت ينتهي بلفظ الحال ، وفي كل بيت للحال معنى مختلف عن معنى الحال قبله . وكلمة بسيطة مثل « الرز » ، هذا الطعام الذي نراه كل يوم على مائدة من موائد الطعام ، له في القاموس أشكال عديدة :

« الأرمُز و الأرمُز و الأرمُز و الأرمُز و الرُّمُز و الرُّمُز »  
 ( بكل الادغام ) وربما كان الأصل الأرمُز بمعنى الانقضاض » .

أما في العامية فللأسد كلمة واحدة ، وللسيف كلمة واحدة ، وللعسل كلمة واحدة ، وانتقت العامية أسهل الألفاظ للرز ، والحمد لله على هذه النعم !

---

## اللهجة وأسلوب درسها

### فوائد دراسات اللهجات :

تعنى الأمم الراقية بدراسة اللهجات الإقليمية وتحرص على تسجيلها وضبط أحكامها وحفظ نماذج أدبية منها ، كل ذلك حباً بالبحث والكشف . وأفضل الدرس ما ليس له غاية نفعية مادية بل ما كانت غايتها ذاته . هذا النوع من الدرس الأكاديمى لا يطلب جزاء ولا يسعى في مغنم ، إنما يهدف إلى معرفة الحق وإلى اكتشاف المجهول . وهل أفضل من معرفة الحق وتكشف المجهول جزاء تجزى به العقول الشغوفة التواقة إلى المعرفة ؟

غير أننا في هذا الشرق العربي نعيش في فترة تميز بطبعيـان المـادة . قيمة الأشيـاء عندـنا تقـاس بـقدر نـفعـها ، وأـهمـيـتها بـقدر تـماـسـها بـحـيـاتـنا المـاديـة . فإذاـنا لمـبلغـ بـعـد ، حتـىـ فـيـ الجـامـعـات ، موـاطـنـ الفـكـر ، مرـتـبةـ منـ التـبـرـدـ تـدـفـعـنا لـدـرـسـ الأـشـيـاءـ لـذـاتـهـا . ولـكـنـ إـنـ كـانـ بـينـناـ مـنـ يـطـلـبـ أـجـراـ أوـ يـسـأـلـ عـنـ غـمـ فيـ دـرـسـ الـلـهـجـةـ فـإـنـ أـرـىـ فـيـ دـرـسـ الـلـهـجـاتـ الإـقـلـيمـيـةـ ، عـدـاـ عـنـ لـذـةـ الـمـعـرـفـةـ لـلـمـعـرـفـةـ ذـاتـهـاـ ، ثـلـاثـ فـوـائـدـ :

أولاً : إذاـ كـنـاـ نـسـلـمـ أـنـ الـلـغـةـ كـاـئـنـ حـىـ يـخـضـعـ لـنـوـاـمـيـسـ الـحـيـاـةـ مـنـ نـوـ وـهـرـمـ فـلـيـسـ أـفـضـلـ مـنـ دـرـسـ الـلـغـةـ الـحـيـةـ (ـالـعـامـيـةـ) دـرـسـاـ مـوـضـوـعـيـاـ لـتـفـهـمـ الـنـوـاـمـيـسـ الـتـيـ تـعـمـلـ لـلـحـيـاـةـ وـالـنـوـ وـالـمـوـتـ . وـذـلـكـ لـأـنـ الـعـامـيـةـ – عـامـيـةـ أـىـ شـعـبـ – لـغـةـ حـرـةـ مـتـطـوـرـةـ ، وـالـفـصـحـىـ – فـصـحـىـ أـىـ شـعـبـ – لـغـةـ كـتـابـيـةـ مـقـيـدةـ بـقـوـاعـدـ ثـابـتـةـ وـمـسـيـحـ حـوـلـهـاـ بـسـيـاجـ شـدـيدـ .

ثـانـيـاـ : نـحـنـ مـنـ الـذـينـ يـؤـمـنـونـ أـنـ فـيـ الـعـامـيـاتـ أـدـبـاـ شـعـبـيـاـ غـنـيـاـ اـزـدـرـتـهـ الـاسـقـرـاطـيـةـ الـفـكـرـيـةـ . وـلـكـنـهـ أـدـبـ مـنـبـقـ عنـ رـوـحـ الـشـعـبـ وـأـحـاسـيـسـهـ . قدـ تـكـوـنـ الـصـيـاغـةـ فـيـهـ بـدـائـيـةـ لـكـنـ الـصـورـ وـالـمعـانـيـ جـمـيلـةـ . هـذـاـ الـأـدـبـ فـيـ صـفـوـتـهـ غـنـيـ بـصـورـهـ ، بـنـكـاتـهـ ، بـدـعـابـتـهـ ، بـأـمـالـهـ وـأـقـاصـيـصـهـ وـخـرـافـاتـهـ ،

وهو ذخيرة ضائعة ومن الحق أن يظل جوهرة في التراب .

يشكوا الناس من جفاف في الأدب العربي ، من استقرار اطيه أبعده عن عامة الشعب . وعندنا أن في الأدب العامى مادة للشعر والقصة والموسيقى . وإذا نحن حرصنا على درس هذا الأدب وجمعه وتنقيته فإننا قد نغنى أدبنا .

ثالثاً : ونعتقد أيضاً أن في العامية مظاهر لغوية ، صرفية و نحوية ، ومعجمية ، حرية بالدرس . وقد يكون في درسها إغناء للغتنا الفصيحة . إن نظره القدامى والمحدثين إلى أن العامية لغة رديئة ركيكة ، وإلى أنها تختلفُ وانحطاطُ أفسدت على الناس تفكيرهم اللغوي . هل استوعب المعجم العربي جميع المفردات العربية ؟ هل اعترف واضعو قواعد الصرف والنحو بصفة جميع المظاهر اللغوية ؟ نحن نعتقد أن لا المعجم ولا كتب القواعد استوعبت جميع المفردات وكافة القواعد . وقد يكون في درسنا مفردات العامية ما يعني معجمنا – كما فعلنا عند دراستنا مفردات اللهجة اللبنانيّة – وفي درسنا قواعدها الصرفية والنحوية ما يشجعنا على التيسير والتبسيط .

### الأسلوب :

قبل البدء بدرس لهجة محكية ينبغي للباحث أن يكون موقفه من عمله موقف العالم المتجرد عن كل غرض أو هوى . ينبغي له أن يكون أسلوبه الأسلوب العلی الدقيق ، لأن تماحُك كل نشاط عقلی رهن بمبلغ تملُك الموضوع مشاعر الباحث وعقله ، وبمبلغ الأمانة والدقة في الأسلوب المتبَع . نقول هذا لأننا نعلم أن بعض الناس ينظرون إلى اللهجات المحكية وعلى عيونهم نظارات ملونة . فهي ليست لغة ، هي لهجة ركيكة تتميز بالرطانة والعجمة ، سقئمة في تركيبها ، فقيرة في معجمها ، سخيفة في أدبها ، سمجة في روحها . فإذا بدأ الباحث وهذه نظرته مال عن غير وعي إلى إثبات ما علق بذهنه عن اللهجة .

قانا سابقاً إن درس اللغة في طريقه إلى كينوته علماً دقيقاً يخضع لقوانين العلم المطبق في حقول أخرى : مراقبة ووصف وتدوين وتجربة وافتراض وبرهنة ثم إثبات أن التجارب تؤيد صحة الافتراض بإعلان التائج قوانين ونوميس عامة . وعلى دارس اللهجة أن يتقييد بالأسلوب ، فلا معطيات مقررة ولا تائج مسلم بها مسبقاً .

وقد يكون من المبتذل ، ونحن بصدق الأسلوب ، أن نذكر بأن علم الفونتيك ( علم الصوت اللغوي ) جزء أساسى من علم اللغة العام General Linguistic إذ أن على دارس اللهجة أن يدونها ويضبط أحكامها الصوتية والتركيبة ، وقد يصعب عليه الأمر إن لم يكن ملماً ولو إماماً بعلم الفونتيك . على أذنه أن تكتسب مراناً في السمع لمعركة طبيعة الصوت وخرجه ، وعلى لسانه أن يكتسب مراناً في إعادة الصوت لكي يدون ما يسمعه فونتيكياً برموز يكون قد اختارها لنفسه ، أو برموز من وضع غيره .

وقد تعد مسألة اكتساب المران في السمع والنطق أمرآ ثانوياً إذا اعتبرنا مسألة أخطر شأنها وهي تعليم كثير من المظاهر الصوتية والإعرابية ، فإنها يمكن أن تكون عند التحليل الأخير إما تطوراً صوتياً أو انحلالاً صوتياً . كثير من قواعد الإعلال والإدغام وسقوط الإعراب يمكن أن يفسر فونتيكياً ، فعلم الفونتيك إذا أمر لا مفر منه في كل دراسة لغوية .

ويحسن أيضاً ، قبل الشروع بدرس اللهجة ما ، أن تنظر فيها سبق من دراسات حول الموضوع نفسه . فإن الفرنجية درسو اللهجات عربية عديدة وخير للمقدم على درس كهذا أن يلم بما كتب في الموضوع . فقد يكون عنده ما يضيفه أو يعدله ؛ وقد لا يكون هناك متسع للزيادة . فإن الدكتور لور Lohr درس اللهجة القدس<sup>(١)</sup> والدكتور ماتسون<sup>(٢)</sup> درس اللهجة بيروت ، ودرس

(1) Max Lohr : Der Vulgararabische Dialekt Von Jerusalem , Giessen , 1905

(2) Emmanuel Mattsson : Etude Phonétique Sur le Dialect Arabe Vulgaire De Beyrouth . Uqsal , 1910 .

المسنيور فعال طحة قرية لبنانية ، كفر عيده<sup>(١)</sup> . فإذا تصدى أحدهنا لدرس هذه اللهجات وجب عليه أن يقرأ هذه أولاً كي لا يبذل جهداً في غير سيله .

### المخطوطة الأولى

يترب على ماذكرناه آنفًا أن تكون المخطوطة الأولى عند دراسة اللهجة إعتراف من قبل الباحث أنها لغة قائمة بذاتها لها نظامها الصوتي (Phonology) ونظامها المقطعي (Morphology) ونظامها المقطعى (Syllabic Structure) ولها صرفها (Syntax) . ولها معجمها ويبيانها وأدبها . وهم الباحث أن يدرس هذه اللغة درساً وصفياً تقريرياً (Descriptive Analysis) لادرساً فلسفياً، أي ذلك الدرس الذي من شأنه البحث عن العلة والسبب والنتائج . ذلك لأننا ، في حقل اللغة ، لا نعرف العلة أحياناً وإذا أصررنا على معرفة العلة والنتائج تكون قد خرجنا عن نطاق البحث العلمي إلى دائرة المحسوس والتخيين .

يشكوا الناس ، مدرسوون ودارسوون . من تعقيد النحو العربي ، ومرد هذه الشكوى إلى أن نحو العربية نشاً وازدهر إبان بلوغ علم الكلام ذروته . فإن مفكري المسلمين جهدوا في أن يوفّقوا بين قوانين المنطق والفلسفة الإغريقية وبين العقائد الدينية . في ذلك الجو الفلسفى وضعت أحكام النحو وقوانين البلاغة والفصاحة . وأثر فلسفة العلة والمعلول ظاهر في علم النحو . زيد في جملة « زيد غنى » مرفوعة بالابداء وهو عامل معنوى ، وزيد في جملة « كان زيد غنياً » مرفوعة على أنها اسم كان ، وزيد في جملة « إن زيداً غنى » منصوبة على أنها اسم إن ، والماضى مبنيًّا لسبب ، والمضارع معربًّا لسبب ، ومساجد لا تنوون ولا تتحر بالكسر لسبب ، وجمع المؤنث السالم ينصب بالكسرة لسبب ، وقد كثرت العلل وتنوعت الأسباب . وقد عزوا ، في كثير من الأحيان ، العلة لأثر الكلمة في الكلمة . ولكن فريقاً من اللغويين لم يرضوا بهذا التعلييل . وقد ألف ابن مضاء القرطبي كتاباً سمياً « الرد على النحاة » ، حاول

(١) Michel T. Feghali : Le Parler De Kfar, Alida , Paris , 1919 .

فيه ددم نظرية العامل . العامل في اللغة هو الإنسان ذاته ، وابن مضاء القرطبي يعد في طليعة علماء اللغة المحدثين ، قوله النصل في وضع التوكيد على الإنسان . درس اللغة درساً وصفياً تقريرياً يقيناً من مزلفي الحدس .

### الخطوة الثانية

جمع مادة لغوية منتخبة من البقعة المزوى درسها لغوياً . قد يكون درس اللهجة من أبناء اللهجة فيعتمد في جمع مادته على ما عنده من ذخيرة لغوية . ولكن يخشى في هذه الحال أن تكون لغته قد تأثرت بثقافته وبالبيئة المغوية التي عايشها في المدينة ، أو في الجامعة ، أو في إقامته بعيداً عن بلاده . فإن هذا الاختلاك بهيجات أخرى وهذا الابتعاد عن البلدة من شأنه أن يترك أثره في بعض العناصر الملغوية والمظاهر الصوتية . فإنني نشأت في قرية لبناية درزية وكانت لهجتي الأولى لهجتها درزية بحثة . أما الآن فإني لا أعتبر خيراً مثال على صفاء اللهجة الدرزية ، فإن ثقافي اللغوية وسكنائي في المدينة وانتماري إلى العراق وكوفي مدرساً يحرص على صناء لغته وحسن أسلوبه جميع هذه تجربتي من الصفات الملغوية التي يجب أن يتصرف بها الدرزي الفح . وإن إذا أردت أن أدرس لهجة الدروز فعليّ أن أستمد درزيّاً قريباً يمثل في لغته لهجة الدروز الصرقة .

جمع المادة الملغوية يتطلب (١) مخبراً Informer

(ب) مادة

(ج) أسلوباً

(١) أما المخبر فيجب أن يكون خيراً مثال على صناء اللهجة . وخيراً من يمثل هذه اللهجة أبناء القرية أنفسهم رجالاً ونساء وولدان . على درس اللهجة أن يكسب ثقة الخبر . فإن وجود غريب في القرية يصاحب آلة للتسجيل ويرغب في تسجيل كلامهم مثار للشك والتساؤل . عليه أن يوضح لهم الغاية من تسجيل كلامهم ، وعليه أن يفهمهم أن التسجيل يجب أن يكون طبيعياً

فلا تكلف ولا تعمد ولا حذفة . ذلك لأن ابن القرية يشعر عند تكلمه مع ابن المدينة أن عليه أن يتكلم كلاماً فصيحاً مهذباً . وعلى المسجل أن يتبه إلى هذا الميل إلى التصنّع في الكلام . يجب أن يظل المخبر على سجنته وعليه أن ينسى أنه يتكلّم في حضرة ابن المدينة أو أمام آلة تسجيلاً .

وتجدر بنا الإشارة إلى أن البقعة الجغرافية المنوى دراستها لغويًا قد تكون مأهولة بأكثر من أقلية دينية . ويلاحظ أن الفروقات الدينية يتبعها فروقات اجتماعية ولغوية . ويسهل بالسجل أن ينتهي مخبراً من أوسعاط مختلفة إن فقد تكون في هذه الفروقات الاجتماعية اللغوية فوائد جمة .

(ب) أما المادة فقد تكون أحاديث وأقاوص وأشعاراً عامية وخرافات ومعتقدات وعادات . وقد يترك المسجل الخيار لمخبر أو المخبرين ، وقد يقترح عليهم الموضوع . ويحسن بالسجل أن يجري امتحاناً قبل التسجيل ليُرِى أن الحديث طبيعي لا تكلف فيه ولا تصنّع .

(ج) أما الأسلوب فالتسجيل الآلي . وقدماً كان دارس اللغة يلْجأ إلى التسجيل المبني على المشافهة . كان الدارس يصغي إلى الحديث ويدونه برموز فونتikiة – ولكن العلم قد أمننا بالآلة المسجلة وكفانا النقص الذي يعتري التسجيل الفونتيكي بالمشافهة . فقد تخون الأذن صاحبها فينوتته أصوات ، وقد تخونه أحضاء النطق فيعجز عن ترديد ما سمعه بدقة وضبط . أما الآلة الحديثة فإنها تعيد الصوت كما يتذمّظ به المخبر وبكل دقة وضبط .

وليس لنا أن تبسيط في وصف الآلة المسجلة فإن أنواعها كثيرة ، وأحجامها عديدة ، والتنافس على صنعها شديد . فترى أنواعاً مختلفة بأشكال مختلفة وبأسعار متفاوتة . منها ما هو صغير الحجم رخيص الثمن ( ٥٠ - ١٥٠ جنيه مصرى ) خفيف الحمل ، ومنها الكبير لدور الإذاعة وللختارات . ومن حسنات التسجيل على الشريط تمكّن الدارس من سماع اللهجة مراراً وتكراراً ، ومن حسناته أيضاً تسجيل أشرطة عديدة لأفراد عديدين يمثلون

مختلف الطبقات الدينية والاجتماعية . فلا يرقى على درس اللهجة إلا أن يضع شرطه في الآلة وينجلس للслушаوات ويندر بين الملاحظات .

### اللغة الثالثة

دراسة اللهجة دراسة استقرائية (inductive) وصفية تقريرية (descriptive) بناء على ما يتجمع عند الدارس من مادة سجلها أو جمعها بطريقة الخاصة . ويحسن أن تكون دراسة اللهجة على مراتب :

- (أ) مرتبة الصوت Phonology
- (ب) مرتبة الصرف Etymology
- (ج) مرتبة التركيب أو النحو Syntax

ولايقف حد مراتبه عند هذا العدد . فلك أن تدرس اللهجة أيضاً على مرتبة المعجمية (Lexical level) ومرتبة التركيب المقطعي (Syllabic structure) ومرتبة الأسلوب ويدخل فيه نواحي البيان والبلاغة ، وذلك أن تقتصر على المراتب الأساسية الثلاث التي ذكرناها أعلاه .

#### (أ) مرتبة الصوت

لكل لغة أصواتها اللغوية التي يطلق عليها مصطلح على «فونيم» وجمعها فونيمات تميزها عن سائر الأصوات «طبيعة التي لا تدخل في نظام أصوات اللغة» . ليس كل صوت هو صوت لغوى . ولا يتوهم أن عدد فونيمات اللغة يتفق عدداً مع حروف هجاء تلك اللغة . كلا فإن فونيمات اللغة أكثر عدداً من حروف هجائها . فالإنكليز عندهم فونيم ث ويرمزون إليه ب Th وعندهم فونيم ذ ولا رمز خاص له . ناهيك عن أن للفونيم الواحد ظلالاً من التغييرات الصفيحة التي تطرأ عليه تبعاً لوقوع حرف ما قبله أو بعده . إذاً وضع رموز فونوتيكية شاملة لنقل أصوات اللغة برقه وضبط أمر ضروري جداً .

ويتجدر الإشارة إلى أن الحرف العربي الحالي من الحركات المسوقة

لا يصلح رموزاً فوتية دقيقة لنقل أصوات لهجة عربية أو لغة غير عربية . وذلك لأن حركات اللغة العربية الأصلية ثلاثة : تصيره وهي u.i.a وطويلة . وهي a.i.u ولكن اللهجات العربية الحكية واللغات الأجنبية أغنى في نظامها الصوتي فهناك e و ə و ə و ə وهناك أنواع مختلفة للفظ . فإنه في سار غيره في صار و ॥ في سور غيرها في صور . فكيف نستطيع أن ننقل هذه الأصوات بالحروف العربية وبالحركات العربية ؟ إن هذا غير ميسور . علينا حتى أن نلجأ إلى الحرف اللاتيني إلا إذا أردنا أن نضيف إلى الحروف العربية رموزاً جديدة لفونيات لا وجود لها في النصحي .

أما الأنظمة المتبعة في نقل الأصوات اللغوية من لغة إلى أخرى - ويسمونها Transliteration - فكثيرة ومتباعدة . لكل أمة نظامها ، أو بالأحرى لكل مؤسسة علمية نظامها الخاص . فالموسوعة الإسلامية لها نظامها ، وقاموس أوكسفورد لها نظامه ، والجمعية الجغرافية الملكية لها نظامها ، و مجلة Z.D.M.G لها نظامها ، وغيرها كثير . غير أن أفضل هذه الأنظمة جمعاً في نظرنا هو النظام المعـدل<sup>(١)</sup> الذي أقرته جمعية الفونـتـيك الـدولـية : The International Phonetic Alphabet بواسطته أن ينقل كل صوت لغوى في العالم . ومن جملتها اللهجات العربية .

وقد لا يرضيك هذا النظام أو ذاك بل تفضل أن تضع نظامك الخاص . فإني لا أعرف دارساً للهجة لم يضع نظامه الخاص . ولا اعتراض على هذا ، شريطة أن تضع ثبـتاـ به في أول الـدـرـاسـةـ ، وشـريـطةـ أن تـبعـهـ بدقةـ وـنـظـامـ كـيـ لا تـشـوشـ عـلـىـ القـارـئـ . وـمـنـ قـبـيلـ الـاقـتراـحـ فـقـطـ ثـبـتـ لـكـ نـظـامـنـاـ الخـاصـ . في نـقـلـ اللهـجـاتـ بـالـحـرـفـ الـلـاتـينـيـ :

## رموز صوتية

### افتراض

الحروف الصامتة Consonants		الحروف الصامتة Consonants	
الرمز	مقابلة العربية	الرمز	مقابلة العربية
? or c	همزة	J or g	غ (حرف g اليوناني) as it is in Arabic
b	ب	f	ف
t	ت	q	ق
θ or Th	ث	k	ك
χ	ج	l	ل
g	ج مصرية	m	م
h	ح	n	ن
x or Kh	خ	h	ه
d	د	w	و
d or dh	ذ	y	ي
r	ر	ai	ـىـ
z	ز	aw	ـوـ
s	س		
s or sh	ش		
S	ص		
ض			
t	ط		
ظ			
z or zh	ظ		
ʃ or tʃ or χ	ع as it is in Arabic		

# الحروف المصوّة

## Vowels

القصيرة	الطوويلة
a في مثل دَرَسَ <i>daras</i>	ā في مثل بَاعَ <i>ba</i>
i في مثل لِبْسٍ <i>libs</i>	ī في مثل تِينٍ <i>tīn</i>
u في مثل رُبْعٍ <i>rub</i>	ū في مثل رُوسٍ <i>rūs</i>
e في مثل رَايْحٍ <i>âyeh</i>	ē في مثل فِينٍ <i>fēn</i>
o في مثل كِتَابٍ بَكْنُ <i>kitaäbkon</i>	ō في مثل لَونٍ <i>lōn</i>

## ملاحظة عن الحروف المصوّة

من المعروف أن هذه الحروف أكثر من لفظ واحد فإن a في كتاب سائع ، رايم ماضي مختلف . فانها في كتاب وسامع مالة إلى حرف e بينما في رايم وماضي مالة إلى o أي إلى التفخيم . وعليه يجب على دارس اللهجة أن يضع ل a المالة رمزاً وللمفعمة رمزاً آخر هكذا :

ة ة (على سبيلاقتراح)

وكذلك إذا لحظ دارس اللهجة أن هذه الرموز لا تكفي للدلالة على حركات اللهجة عليه أن يضيف إليها رمزاً أخرى أو يكتفى بهذه مع إضافة فرق كما هو متبع في كتب المستشرقين الذين درسوا اللهجات .

إن دراسة اللهجة في هذه المرتبة ، مرتبة الأصوات ، تتناول أخطر ناحية في اللغة وأكثر الظواهر تعقيداً ، وذلك لأن اللغة مجموعة أصوات تتعرض للتغيير الدائم . وأول خطوة في هذه المرتبة تقسيم الأصوات إلى قسمين طبيعيين : الحروف المصوّة والحراف الصامتة فيصف طبيعتها ومخارجها وما يطرأ عليها من تغييرات تبعاً لوقوعها في الكلمة وتبعاً لما يسبقها ولما يتلوها من حروف . ثم يدرس قضية النبرة ( accent ) التي يُعرّفها لغويو العرب أقل

انتباه فإنها على جانب من الأهمية وذلك لتأثيرها في طول الحركة وقصرها واحتلاسها .

### (ب) مرتبة الصرف

وتستعمل كلمة الصرف هنا بالمعنى الذي تتضمنه الكلمة الغرورية Morphology أي العلم الذي يعني بالشكل والبناء وبالتغيرات التي تطرأ على الكلمة المفردة من سابقة (Pr. fix) وواسعة ( infix ) ولاحقة ( suffix ) ومن تصريف مع الضمائر ومن إعلال وإدغام . هذه الظواهر تقع في حقل الشكل والهيئة (morphology) . فإذا كان درس اللهجة في هذه المرتبة يتناول الكلمة المفردة وجب علينا إذن أن نعيد تقسيم الكلمة على أساس جديدة . ونحن تؤثر تقسيم الكلمة المفردة إلى ستة أبواب :

- (١) الفعل
- (٢) الإسم
- (٣) الصفة
- (٤) الضمير
- (٥) الظروف
- (٦) الأدوات<sup>(١)</sup>

ولا يأس في إسقاط البابين الآخرين ، الظرف والأداة ، في هذا الطور من الدراسة وإرجائهما إلى مرتبة التركيب (النحو) وذلك لأن أكثر الظروف مبنية ، وجميع الأدوات مبنية ، ومعنى هذا أن شكلها لا يتغير فلما تدخل في باب الصرف (morphology) لأن علم الصرف يعني بتغيير الشكل ، وأشكال هذه لا تتغير ، إنما عملها في غيرها ، في التركيب .

ولا يسعنا التبسيط في درس هذه الأبواب لأننا في معرض درس الأسلوب . ولذلك نكتفي بمحاطة لدرس الفعل يكون نمطاً يقاس عليه سائر

(١) يدخل في هذا الباب جميع أنواع المحروف .

الأبواب . فإنّ إذا أردت درس الفعل ، في مرتبة الصرف<sup>(١)</sup> فإنّ أدرس النواحي التالية :

### (١) أوزان الفعل

(ب) تصريف أوزان الفعل ماضياً ومضارعاً وأمرآ .  
 (ح) ما يشتق من الفعل : اسم الفاعل والمفعول واسم المكان والزمان  
 والآلية والمصدر .

ونقتصر على ذكر أوزان الفعل في لهجة قريتنا (رأس المتن) وهي قرية  
 ليبانية أكثريّة ساكنتها من الدروز . فقد وجدنا من دراسة نصوص  
 جمعنّاها ، أنّ أوزان الفعل في لهجة هذه القرية اللبنانيّة هي :

(١) المجرد الثلاثي فَعَلْ : كتب شرب مشى نسي (مشى نسي) قام ، عَدَّ  
 دمى (رمى) قرأ .

(٢) فَعَلْ مثل علم .

(٣) فاعل مثل ساير جاهر .

(٤) افَعَلْ لا وجود له باللاحظ أن كل افعل في النصيحة يصبح فَعَلْ  
 في هذه اللهجة مثل تلف طعم تعب تقن ( بدلاً من أتلف وأطعم  
 وأتعب وأتقن ) .

(٥) تَفَعَّلْ مثل تَكَلُّمْ .

(٦) تَسَاءَلْ مثل تقاتل .

(٧) أَفْعَلْ يصبح فَعَلْ مثل نَكَسَرْ تَبَرَّحْ .

(٨) إِفْتَعَلْ يصبح فَعَلْ مثل خَتَّالْ .

(٩) أَفْعَلْ فقط من الألوان ويصبح فَعَالْ مثل حمرَّ .

(١٠) استفعل ويصبح نَسَأَلْ مثل نَسَخَدَمْ .

(١١) الأفعال الرباعية وهي كثيرة في لهجة لبنان وتدوّجنا أن المجرد

(١) لأن درس الفعل يدخل أيضاً في مرتبة التركيب (النحو) .

الثلاثي يصبح رباعياً بإضافة حرف إلى الثلاثي . بعض هذه الحروف التي تزداد:ى ون رم ب ش فيصبح لدينا أوزان مثل : فَيَنْعَلُ (أو فَعَنْيل) فَوْنَعَلُ (أو فَعَنْوَل) فَنَفَعَل ، فَرَعَل ، فَبَعَل (أو فَعِيل مثل غلبط) شَفَعَل مثل شَقْنَاب وشَهَب . وهناك أوزان أخرى مثل فَعَنْلن إضافة النون في آخر الفعل مثل رَوْنَخ ، تَرَوْنَخ عَشَنْوَن .

ثم إن هذه الأوزان يجب أن تدرس عند ما تصرف مع الضمائر ماضياً ومضارعاً وأمراً . ثم يجب النظر في المستعقات : اسم الفاعل والمفعول والمكان والزمان والآلة والمصدر من جميع هذه الأوزان . ويجب أن تكون هذه الدراسة مبنية على شواهد من المادة المسجلة أو المجموعة .

### (ج) صرارة التركيب أو النحو

وجوه اللغة التركيب . توضع المفردات وتهزم وتموت ويحل محلها مفردات جديدة ولكن العنصر الثابت في اللغة التركيب . تستطيع أن تعلم مفردات لغة أجنبية كما أثبتتها القاموس ولكنك إذا لم تتعلم قواعد التركيب فإنك لا تستطيع أن تقول شيئاً في هذه اللغة سوى الإشارة إلى الأشياء مع ذكر الأنماط الموضوعة لها وذلك لأنك لا تعرف التركيب . إذاً التركيب جوهر اللغة . إنني إذا أردت أن أدرس التركيب (النحو) في لهجة ما فإني أتبع المخطط التالي :

(ا) صيغ الفعل الزمنية : الماضي والحال والاستمرار والمستقبل .

ويدخل في هذا الباب استعمال اسم الفاعل للدلالة على الزمان مثل ماضى وراكب .

(ب) الجملة البسيطة والمركبة (الإخبارية والإنشائية) .

(ح) الاستفهام والنفي والتوكيد وأدواتها .

(د) المطابقة : الفعل لفاعله والصفة لموصوفها ، والمقابلة مثل غنى ،

أغنى من ... ، أغنى الناس .

- (ه) الموصول .
- (و) أفعال مساعدة .
- (ز) الظرف .
- (ح) أسماء العدد وأحكامه .
- (ط) الأدوات ومعانيها واستعمالها .

هذا ينطوي عام لدراسة اللهجة . وقبل أن نهى الكلام عن الأسلوب نذكر الباحث أنه قد يتناول في درسه مرتبة أخرى من مراتب درس اللغة فقد ينظر في معجم اللهجة ، وقد ينظر في أساليب البلاغة فيها ، وقد يعني بأدبها وبجمعه ونشره ، وقد يكتفي بالناحية اللغوية الصرفة كما ذكرنا في المخطط . ولا يغرن عن البال أن كل ناحية من نواحي اللغة ، لا بل كل ظاهرة بسيطة تتصلب تقنياً وجهاً . فإننا نعرف علماء حصر واجهتهم في ناحية ضيقة كأن يدرس الواحد منهم الفعل فقط أو الإسم أو حرف الهمزة وما يطرأ عليه من تقلبات . إذاً يحسن بدرس اللهجة أن يكبح جماح طموحة فيقصر درسه على ناحية محددة فيدرسها درساً مركزاً لا يبقى معه مجال لمستزيد .

### مفرافية المرجات

ومن الدلائل التي تتعلق بدراسة اللهجات وضع خرائط لغوية تبين الفروقات الملغوية التي تميز بها بقعة عن أخرى . ففي لبنان مثلاً طريقتان للتلفظ بحرف القاف . منهم من يلفظه على طريقة العربية الفصحى ق . ومنهم من يلفظه همزة ، فيقولون «إِلَّا كُو» ، (أى قلت له) و «قْلْتِي لَّا كُو» . وهناك ظاهرة أخرى في لبنان وهي أن بعض المسلمين في بعض المناطق يلفظون القاف كافاً حتى في قراءة العربية الفصحى ! وبعض اللبنانيين ، عند تعبيرهم عن صيغة الزمن الحالى عندما يكون الفعل أو الحدث مستمراً ويقال له ( Present Continuous ) يقولون «عمْ يأكل» ، ولكن بعضهم يقول «منْ يأكل» ، أى هو في سياق عملية الأكل . فإذا أراد دارس اللهجة أن

يبين للناس مواطن القاف الفصيحة ومواطن القاف المتغيرة إلى همزة ، ومواطن دَعْمٍ يأكل ، ومواطن دَمَنْ يأكل ، فليس عليه إلا أن يأخذ خريطة لمنطقة الجغرافية ثم يبين على الخريطة الواقع التي فيها تبدو للظاهرة اللغوية التي هو بصدرها . وقد يرسم خرائط عددها عدد ما يتخذه من مظاهر لغوية اتقاها لنفسه . فقد يأخذ تركيآ غريآ ، أو لفظة غربية ، أو أصواتاً لغوية غريبة ، ويعقبها على الخريطة . ولن يتم له ذلك إلا بعد أن يكون قد زار الماطق هو بنفسه للتتأكد من صحة الأمر . واتنا نجد في البلدان التي تعنى بدراسة لهجاتها العامية عدداً كبيراً من الخرائط اللغوية لكل ظاهرة لغوية فريدة . فإنك قد تجد في فرنسا مثلاً خريطة لحرف الراء ، حرف الراء . حيث يلحظ كإيجاب أن يلفظ حرف الراء ، وحرف الراء المتغير إلى غـ . قد يرغب أحدكم في دراسة حرف الجيم مثلاً وكيف يتغير النطق به في مختلف البقاع العربية فتظهر الخريطة وإذا بمصر تقع في المنطقة حيث يتلذّظ به جـ والعراق حيث يتلذّظ به زـ ولبنان حيث يتلفظ به لـ .

# اللهجة اللبنانية

مقدمة تاريخية

كان لبنان نهاية مطافًّاً لأقاليم عديدة ، عرقية ولغوية ودينية ، نزحت إليه هرباءً من انتصاراته ، فوجدت في وديانه وجبله حتى تستطيع فيه العيش بأمان وحرية . وقد حافظت هذه الأقاليم على عاداتها وشعائرها وطقوسها وللهجاتها . ولذا كان لبنان معرضًّاً لزيارات وعائدات واللهجات .

وقد مرّت هذه البقعة الجغرافية في أطوار تاريخية مختلفة ، وعرف أهلوها ، إلى جانب اللغة الأصلية ، لغات أخرى عديدة ، مصرية ، حثية ، بابلية ، آشورية ، فارسية إغريقية لاتينية ، عربية ، تركية ، ولكن تعاقب هذه اللغات لم يكن لينازع اللغة الأصلية الآرامية (باستثناء العربية التي حلّت محلّها تدريجيًّا) التي لا تزال آثارها في أسماء القرى والمدن وفي اللهجة العربية المحكية في لبنان .

والآراميون بجموعة قبائل سامية توطنوا سوريا والعراق وشمال الجزيرة العربية ، وجموعهم تشكّل الموجة السامية الثالثة التي اجتاحت الهلال الخصيب ، طلباً للماء والمراعي . وأول ما نلتقي بهم في التاريخ نجدهم بدروأ رحلاً في شمال الجزيرة العربية . ثم إنهم حوالى ١٥٠٠ ق. م نزلوا شواطئ الفرات الأوسط ومن هناك اتجهوا غرباً نحو سوريا ولبنان . ولم يكونوا قبيلة واحدة بل بجموعة قبائل متحالفة ، منها قبيلة الخبرى التي يرد ذكرها كثيراً في رسائل قتل العمرونة ، تلك الرسائل التي بعث بها أمراء سوريا ولبنان وفلسطين إلى منحوتب الثالث والرابع طلباً بالإمداد العسكري لصد هجمات البدو الراحنة من الشرق والجنوب . ولكن مصر آنذاك كانت غارقة في نزاع ديني . وقد أسس الآراميون دويلات أو إمارات عديدة شأنهم في ذلك شأن الموجات السامية الأخرى التي لم تستطع أن تتوحد ، فكان العنصر الصحراءوي

القبلي عميق الأثر في الحياة السياسية . وتذكر لنا أسفار التوراة – والتوراة مصدر تاريخ قيم لدراسة الشرق الأدنى القديم – مجلة من هذه الدولات منها آرام نهرايم (أى العراق القديم) وآرام دمشق (أى سوريا وقد سميت بالماصمة دمشق) وآرام صوبا في سوريا المتوضحة وآرام معكة في فلسطين . وليس لنا أن نساير هذه الدولات في تاريخها السياسي ، إنما يهم هنا من أمرها ذكر حققتين : أولاً إن الآراميين هم الذين نشروا الهجاء الذي وضعه الفينيقيون في جميع أنحاء الشرق الأدنى فإن لغتهم حوالي ٥٠٠ ق . م . أصبحت اللغة العامة الرسمية (lingua Franca) في جميع أقصى الشرق الأدنى القديم . فقد حل محل الكنعانية والعبرانية . وكانت لغة السيد المسيح على الأرض الآرامية لا العبرية كما يظهر من النسخ القالية التي نقلت عن لسان السيد المسيح . وقد جعلها الفرس اللغة الدبلوماسية . ثانياً عندما تصررت هذه الشعوب الآرامية – ويدعون أن تنصرهم حدث بعد موت المسيح مباشرة – غيرت اسمها من شعوب آراميه إلى «سورية» ومن لغة آرامية إلى لغة «سورية» وفي مصلحتنا اليوم سريان وسريانية . وذلك لأن هذا الإسم «آرامي» كان يذكرهم بوذريتهم ، وفي العبرية لفظه آرامي معناها وثني . وقد كان تصرهم شيئاً في قواعدهم تحت تأثير الهلينية فكانت الإغريقية واللاتينية من اللغات التي تدرس في مدارسهم . وقد ترجموا إلى السريانية كثيراً من كتب الرياضيات والطب والفلسفة . وفي العصر العباسي لعبوا دوراً هاماً في الترجمة وفي نقل الفكر الإغريقي إلى اللغة العربية . غير أنهم في القرون الثلاثة أو الأربع السابقة لظهور الإسلام انقسموا على ذرائهم حول آراء دينية لاهوتية تتعلق بطبيعة المسيح ومريم العذراء وطقوس الكنيسة فانقسموا إلى كنيستين شرقية وغربية يعقوبية . وكان لهذا الانقسام الدیني أثره السياسي واللغوي .

إن لغة لبنان قبل النتح العربي كانت لهجة سريانية أى آرامية ، وطابع هذه اللغة ظاهر في أسماء القرى والمدن وفي مفردات اللغة ، وأئم من هذا كله في تركيب اللغة .

يظهر أثر الآرامية في لهجة لبنان في : لفظ الحروف فرق الذال أصبح ذالاً في قال كداب<sup>(١)</sup> ، وكل ثاء أصبح تاء . وأدخلت حروف مصوّته جديدة القصير تان والصو يلتان .

وفي الضمائر فإن اللبناني عندما يقول ( ena ) فإما هو في الواقع يلفظ ( ena ) السريانية ، وعندما يقول كتابو كتابهن ( أو كتابن ) وهي ( hem ) فإنه يتلذّذ بهذه الضمائر كما كانت في اللغة الأصلية ، إذ يصعب على أي شعب يتخذ لغة الناتج أن ينسى آنماذج اللغوّية الأصلية في لغته .

الفعل : ويظهر أثر الآرامية في الفعل ، في كسر حرف المضارعة وفي صيغة الأمر وفي حركة الناقص في صيغة الماضي ( رمى غنى ) .  
المفردات : ويظهر أثر الآرامية في كثرة عدد المفردات الآرامية الباقيّة في اللغة المحكية فإن عددها يصل إلى المئات وهو جزء من صميم الحياة اللبنانيّة القرويّة .

التركيب : أما أهم أثر للآرامية فهو في التركيب . وقد قلنا سابقاً إن التركيب جوهر اللغة . فماك عندما تقرأ نصاً سريانياً وتترجمه ترجمة حرفيّة يتبادر حالاً إلى ذهنك التركيب اللبناني العامي . ومن هذا التركيب ما يعرف بلغة أكلونى البراغيث فإن هذا التركيب سرياني فصيح وعليه يقول في لبنان الجوا الضيوف وطعمونى الجيران عنب . وعندما يقول اللبناني شفتو خيك وأكاثها للتفاحة فإنه يستعمل مفردات عربية في تركيب سرياني فصيح . وعندما يقول اللبناني بحب أشتغل وبريد آكل ولازم يجي فإن حذف «أن» التي تتوسط بين الفعلين متأثر بالتركيب السرياني .

ولتكن ، ذكرنا لكم سابقاً ، أن علم اللغة الحديث يتغاضى عن معرفة الأسباب والعلل ويترك التاريخ جانباً . هم دارس اللغة وصفها وصنّا استقرارياً تجريرياً ، ولذا ساختم أحاديثنا بنماذج من اللهجة اللبنانيّة شاعراً ، تاركين لكم أمر دراستها على ضوء ما ذكرناه لكم عن أسلوب دراسة اللهجات . ولا بد من الملاحظة أن كتابة أية لهجة عربية بالحرف

(١) حسب نطق الموازنة في شمال لبنان .

العربي الحالى من المحرف المصوته لاتساعد القارىء على قراءتها قراءة صحيحة، وكان الأولى بنا أن نكتبها لكم بالحرف اللاتيني كما اقترنا أناً على دارس اللهجة، ولكن خوفاً من مشاكلطبع سنتبها لكم بالحرف العربي.

## من «رسائل شمونة»

(نشرت تباعاً في مجلة الدبور الأسبوعية سنة ١٩٢٨)

و«رسائل شمونة»، قصة قزويبة تصور تطور الحياة الريفية والمدنية في لبنان. وهذه القصة مكتوبة باللغة العامية الجليلية، ولكن بما أن كتابة العامية بالحرف العربي أمر غير ميسور فإن القارئ يختار في قراءتها، أهي عامية أم صحيحة؟ وقد اخترنا أن نكتبها كما هي مطبوعة في الكتاب على أن نعيد كتابتها بالحرف اللاتيني لظهور حقيقة النطق الذي أراده المؤلف حنا الخوري النغالي. أما القصة بنسختها جداً في حرادتها. تدور القصة حول فتاة يدعى إلهاب اسمها شمونة. تزك شمونة القرية رغم إرادتها أنها وعها وتهبط إلى المدينة للعمل خادمة في بيت من بيوت الأغنياء. وقد كان وقع الحياة المدنية على هذه الفتاة الأممية الساذجة العاهرة شديداً فلم تقوى على مقاومة التجارب العنيفة التي تعرضت لها. وبعد اختبارات مررة تعود شمونة إلى القرية نادرة نفسها للخدمة المجانية في المستشفى زهداً في الحياة وتكتفيا عن زلتها.

وأنباء إقامتها في بيروت كانت تبعث برسائل إلى أمها في القرية تصف فيها وصفاً واقعاً الانطباعات التي تركتها المدينة في نفسها. وكانت أنها ترد على هذه الرسائل وتكتثر فيها التصحيح والإرشاد والتحذير من معنة الاسترسال في حياة المدنية. فجاءت هذه الرسائل سجلاً صادقاً لحياة القرى وبين في القرية ولحياتهم إذا هبوا المدينة. وإليكم مثالين على هذه الرسائل : الرسالة الأولى من شمونة إلى أمها تعها أنها أخيراً قررت «السترة»، فلرتضت أن تزوج من لبناني عائد من أميركا الجنوبي اسمه «ميک»، أما اسمه قبل هجرته فكان «مخنول». وميک كبير السن على شيء من الغنى وطيبة القلب. والرسالة الثانية من أم شمونة وفيها تعبر عن القلق الذي يساورها من جراء التأثير في إخبارها عن يوم العرس وتلح الأم على ابنتها أن تستغفِر الله ولا تتردد إذ ليس لها الآن إلا «السترة».

## «شمونة مخطوبة»

والدى الحنونه

مثليا بتغيب شمس المسا بالضيـعـه هـيـك يا والدى صـرـت أـشـعـرـ أنـأـيـامـ العـزـوـيـهـ عـمـ تـغـيـبـ شـمـسـهاـ .  
منـالـيـومـ بـلـشـتـ أـشـعـرـ بـدـقـهـ قـلـبـ وـرـجـنـهـ بـالـنـاـصـلـ ،ـ وـإـذـاـ كـانـ الـاستـعـدـادـ للـزـواـجـ هـيـكـ قـدـيـشـ بـدـهـاـ تـكـوـنـ العـيشـهـ صـعـبـهـ فـيهـ .

المـثـلـ بـتـمـولـ :ـ لـمـاـ بـتـخـلـقـ الـبـنـتـ بـتـبـكـ عـتـبـهـ الـبـيـتـ وـبـتـحـزـنـ .ـ وـكـانـ بـقـولـ  
الـمـثـلـ :ـ بـتـخـلـنـ الـبـنـتـ وـبـخـلـقـ هـمـاـ مـعـاـ .ـ الـحـقـ مـعـ الـأـمـثـالـ وـمـاـ فـيـ مـثـلـ كـذـبـ .  
الـبـنـتـ بـتـعـبـ أـهـلـهـاـ كـفـ مـاـ كـانـتـ .ـ إـنـ كـانـتـ حـلـوـةـ بـتـعـبـهـمـ ،ـ وـإـنـ كـانـتـ  
شـدـيـعـهـ بـتـعـبـهـمـ .ـ بـالـأـوـلـ يـكـوـنـ هـمـاـ تـزـوـجـ وـلـمـ بـتـزـوـجـ بـتـجـمـعـ عـلـيـهـاـ كـلـ الـهـمـومـ .  
رـزـقـ اللهـ لـمـ كـانـ كـنـاـ بـذـيـاتـ صـغـارـ مـاـ نـهـمـ بـغـيـرـ الـأـكـلـ وـثـيـمـ الـهـواـ .ـ نـهـمـ  
تـعـمـلـ مـنـ الشـرـ اـطـيـطـ لـعـبـ .ـ نـهـمـ بـاعـبـ الـحـبـلـ ،ـ نـهـمـ بـلـعـبـ الـلـقـوـطـ .ـ خـبـنـاـ  
مـخـبـوزـ وـمـوـبـتـناـ بـالـكـوـزـ .

كـبـرـنـاـ مـاـ شـاءـ اللهـ وـلـمـ كـبـرـنـاـ كـبـرـ الـهـمـ مـعـنـاـ .ـ صـحـيـحـ لـعـبـنـاـ وـضـحـكـنـاـ وـقـضـيـنـاـ  
أـيـامـ حـلـوـةـ لـكـنـ بـلـشـتـ أـيـامـ السـوـدـةـ .

الـخـدـ كـانـ يـوـمـ الـخـطـبـةـ الـيـوـمـ إـلـىـ كـلـ بـنـتـ بـتـنـذـرـ نـذـرـ حـتـىـ توـصلـ لـوـ ،ـ  
وـأـهـلـهـاـ مـاـ يـصـدـقـوـ إـيـتـاـ يـحـيـ هـاـ الـيـوـمـ .ـ وـأـنـتـ مـقـفـورـةـ مـثـلـ باـقـيـ الـأـمـاتـ مـنـ وـقـتـ  
ماـ كـبـرـتـ وـأـنـتـ نـاطـرـةـ هـلـ الـيـوـمـ –ـ وـمـنـ حـسـبـ أـنـكـ بـرـكـ تـكـوـنـيـ أـنـتـ  
بـيـلـادـ وـأـنـاـ بـيـلـادـ؟

كـنـتـ مـفـتـكـرـةـ يـوـمـ خـطـبـتـيـ تـعـزـمـيـ الـقـرـايـبـ وـأـهـلـ الضـيـعـهـ وـتـعـزـمـيـ بـوـنـاـ  
الـخـورـىـ حـتـىـ يـصـلـىـ عـلـىـ الـأـوـاعـىـ .ـ وـبـيـجـيـ عـمـيـ بـوـسـرـكـيـسـ يـلـبـسـنـ خـاتـمـ الـخـطـبـةـ  
يـاـيدـىـ .ـ وـبـتـعـمـلـ لـلـمـعـازـيـمـ مـعـكـرـوـنـ وـتـقـدـمـيـ لـهـنـ تـيـنـ وـجـوـزـ .ـ وـبـيـتـدـىـ قـوـلـ  
الـقـرـّـدـىـ وـالـمـعـنـىـ .ـ وـبـتـمـسـكـيـ هـاـ الـكـبـاـيـهـ وـتـشـرـبـ عـرـقـ كـرـمـالـ الـمـعـزـوـمـينـ ،ـ  
وـبـتـرـقـصـيـ وـبـتـضـحـكـيـ وـبـتـقـولـيـ :ـ إـنـ شـاـ اللـهـ مـنـكـافـيـكـ وـقـتـ فـرـحةـ وـلـادـكـ ،ـ

والعزابي نفرح منهن ، وإلى ما عندهن نقشع لن . . ، تافى يوم ييجو بنيات  
الضيعة وبقولوك شو بدك يا أم شمونه ، شو بيلزمك حتى نساعدك ؟ . كهي :  
بتخيط محري وهيديك بتحيك خرج يمامنديل . كلّو هذا راح كانوا ما كان ،  
وبعد جمعة بتصير شمونة لأنها ما كانت . والجازة جنازة . لكن ما لقيت  
ليلة الخطبة تقيلة لأنّ هيك كنت متظاهرة . ضحكت وتصنعت وعملت حال  
مبسوطة ، لكن إن ضحكت على العالم بقدر أضحك على نفسى ؟

مهمَا كبرت نفسى بظل أشعر إنى زغيرة . مهمَا تحسنت وتبودرت بقدر  
شيل تجعوض وجى ؟ مهمَا قالوا الناس عنى مليحة وآدمية ياهل ترى بقدر أنّكر  
إنى ما . . . بقدر رد حكى الناس عنى ؟ آه يا أمى كل شىء بيتعوض ، المال  
بيتعوض ، خسارة الأهل والرزق بيتعوض لكن الشرف مابطن إن خسر و  
حدا بيتدذر يعوضو ، وخصوصاً البت ما بتقدر تمحى غلطتها .

كل ما شفت شب يمارجالي كان لي معو سابق معرفة بحس لأن حربه عم  
تشك في خاصرتى . وصرت شوف إن كل الناس عيون عم تطلع في . كأنى  
بسمعهم عم يقولو : وَلَكَ هَىِ ما كانت صانعة بيدت فلان ؟ مش هي ال كانت  
تحاكى الدكنجي ؟ هي صفتا هي نعتا لكن ال بسليني يا والدى إن المتنى كتار  
وكتان إلى وقعوا وقعة أكبـر من وقعي .

بـكرا يعرفو بذيات الضـيعـة إـنـى اـنـخـطـبـتـ . قـلـ لـهـنـ مـثـلـ ماـ بـتـقـولـ كـلـ أـمـ  
عن خطيبـ بـنـتهاـ : إـنـ شـاءـ اللهـ كـلـكـنـ بـتـحـظـوـ حـظـوـةـ شـمـونـةـ ١

خبرـهنـ إـنـ لـيـةـ الخطـبـةـ كـانـ لـيـةـ حلـوةـ كـثـيرـ ولوـ ماـ يـكـونـ فيـ مـانـعـ حـدـادـ  
منـ جـهـةـ الخطـبـ كـانـ عـزـمـ كـلـ أـهـلـ الضـيعـةـ . قـولـ هـيكـ — هـذاـ الدـارـجـ فيـ  
يـرـوـتـ ، وـسـلـيـ الحـمـيـ بـقـسـرـ الـبـطـيـخـ وـوـدـيـهـنـ إـنـكـ بـتـشـيلـ الفـرقـ يـوـمـ العـرسـ .

هـذاـ إـلـىـ بـخـبـرـكـ بـالـاختـصارـ . أـمـاـ منـ خـصـوصـ مـيـكـ بـتـشـوـفـيـهـ مشـ مـصـدقـ  
إـنـ كـنـوـ خـطـبـ بـيـاـ لاـ . بـقـصـ وـبـجـيـبـ وـبـيـعـزـقـ مـصـرـيـاتـ منـ غـيرـ دـاعـيـ . كـانـتـ  
سـهـرـتـوـ لـلـسـائـةـ تـمـانـيـ صـارـ يـغـصـهـاـ لـلـسـاعـةـ حـدـعـشـ وـلـيـالـىـ لـلـسـاعـةـ تنـعشـ .

بالحقيقة إنه بسل . يقعد يخبرك شو صار له بأمر كا وشو شاف بالنهار ومن حا كاه ومن حاكى ، وأم الياس بتحب الخبراء . ومرة سمعت لك يا هعم يتسابير مع أم الياس . قلها . . . .

كنت مفتكرة أطلع لي شى مشوار شق عليك لكن بالحقيقة ما بقالى عين أطلع للضياعة . واصل لك شوية مصارى ، مصروف المنا . وأنا لو تزوجت مش ممكن أتخلى عنك . بها الجمعة الخياطة بتخلص ولحد هلق ما قررنا وين بكون الإكليل . راح أعمل جهدى تابعت جيك لعندى بعد ما نصَّن على رأى .

ما في لزوم تَخْبِرِي عنى شى . حتى ملحة وطمئنني عنك بها البرد . لفلى حالك مليح لأن شهر شباط شهر منحوس ولا تنسيش أبو شهر عجاييز كان .

بنتك شمونة

## « طارت شمونة »

ولدنا العزيز شمونة

رآنا العجب يا شمونة . صرلى زمان منتظره مكتوب الإكليل ولحد هلق ما حظيت بمكتوب ولا عرفت شو جرى ولا شو صار .

كل يوم عملك بو سركيس بقللياليوم منو لف حالات نزل نهنيكى .  
شو القصة ؟ شو الحكاية ؟ العسى ما يكون حصل شى يشغل الفكر . بس ما يكونو المغضبين خوطر ولو فكره لعرىسك أو تكوني أنت تغيرت فكارك  
بنصحك يابنتى وباكل من بيتنا . لا تقلى ولا صراره . اتكلى على الله  
ولا بقا تغيرى فكرك . مين بدارك تنطري ؟ شو فكرك راح يبحى ابن السلطان  
عبد الحميد بعد ياخذك ؟ هذا حظك وهذا نصيبك .

بعد ما تتجوزى بتشوفى ، وتبقى قولى أمى هالخرفانة حكت . كتار قبلك

علقوا علقتك وصاهم مثل ما صابك ، بالآخر رجعوا ستروا حالمون وعاشو بخوف الله ، ما حدا عقل وندم ياشونة . أنا بهمني تتجاوزي تكفي لسانات العالم عنك . بتاخذى ميك ، بتاخذى غيره ، مش فارقه معى . الى بتتجاوزيه الله اتنى . لا راح أنا بشجـَـزو ولا عنك بو سركيس . نحنا تجوزنا فشبعنا جازة . حاج بقا يا بنتي ! جر صونا أهل الضيعة . وانت مش قاعدة هون تسمعى بذينتك . انطبلت الأرض بقصتك . كل شىء يتغوض من عدا الشرف .

روحى تجوزى واعمل صالحك وترکي بيروت . الله يعى لها زلة ،  
ربت بقلبي علة وما لها دوا .

الله يوجه لك الخير يا بو سركيس قديش قتللى حتى ودى وراك ورجوك  
واناقلو : لا ، لا ، أنا بعرف شو مر باية وشو في عندي . تفسيرها مسختيني  
وجر صتيني . وأكثر من هييك ما راح باكتب لك ولفهمك كفاية .

أمك الحنوتة

أم شمونة

ما لحقت خلصت المكتوب أم شمونة حتى سمعت حس عجقه . افتكرت  
حدا جاي يسهر . لكن من بدئ يجي بها الليل والنلاج للطوابق ؟ من الوخاصيته  
يقوم من حد المنفل ؟ أخيراً قامت فتحت لقت شمونة ومعها شب ملطفين  
بالعي . شهقت أم شمونة وغميت . طبت شمونة ع صدر أمها تبوسا وتحاكها  
وتقعلا قوى شوفي بنتك ، قوى تعرفي ع هالشب الظريف . بعد الجهد  
المجيد وعيت الأم وما عادت عرفت كيف بدا تبوس بنتا .

— إيه احسن هذا ياما ميك ؟

— الله يرضي عليك يا بنتي ويوقفك . هذا مش الدكنجي الى كنت  
تكتيل عنو ؟

— هذا هو بعينه وبعيناتو !

— و ميك شو صفت حواله ؟

تركتو سهران هو و ام الياس .

## أغانى الضياعة

و هي مجموعة أشعار عامية نظمها الشاعر الشعبي إميل مبارك ، ابن الضياعة اللبنانية . وقد أجاد الشاعر في وصف القرية اللبنانية كما كانت القرية أيام جدودنا . ولكن الحياة تسير بسرعة والمدنية الغربية تغزو القرية النائية الرابطة على القمة والختبة في بطん الوادي . والجبل الخضرم أمثال الشاعر إميل مبارك يشعر بحنين مشوب بأسى على تلك الحياة القروية المأهولة . وستبقى هذه الأشعار سجلًا خالدًا يقرؤه أبناء القرية بعد أجيال فيتعرفون إلى الحياة التي كان يحياها أجدادهم .

---

## تنفة خوري

على البحر المزدوج ذى الدعامتين وعدد المقاطع في الدعامة الواحدة ٧

يا ما نظمتك أشعار  
وكانت روحى تناجيكي  
يا ضياعا نحنا وزغار  
يا ما لعبنا بواديكي  
ما عاد الورد بنوار  
ينفح عطر ويهديكي  
ودهر الحط عليك وجار

## ما عاد یذکر ماضیکی

\* \* \*

ولادك هجوا من القلى  
ما عاد قدروا حملوا الدين  
تركوك ع هالتلى  
بغصنة قلب ودمعه عين  
عصافيرك عم بصلى  
يفور البىدر بالغللى  
وترجم بالجره تمللى  
الخلوه من مزراب العين

\* \* \*

يا بيت جدي و بيت يا بيك  
الهجرور يا بيتي يا بيك  
الطاقة عصفور دورى من  
والبغدو يسمع قداس بكنىسي ، و تنفسه خورى  
مش باق إلا شمس اس  
ويبيست ورد الجورى  
ذوقتهـا مر الكاس  
يا دنى حاجى تجـورى  
عالضـيعا التـركتها الناس

ما ف قرنة بالمعنور  
 متكلك بتحن على  
 شبابيك ربو المتصور  
 بطاقاتك غنى العصفور  
 فيك عيوني شافو النور  
 وفيك بعْض عيني

---

### ضياعتنا

#### البحر الردوج

ضياعتنا غامرها النور  
 مشرورة عا زاس التسل  
 مدخلهنا دراج زهور  
 بشوف جل بضرر الجل  
 بخواضا ورد ومنتور  
 بتضحككك لين بتطليل  
 ويسلوون صتو العصفور  
 عا شـ لـ لـ لـ مو بـ لـ !

\* \* \*

ضياعـ فيها راعـ قـ قـ يـ  
 عـ ما عـ دـ غـ يـ رـ

يختلف فيها بحير  
 ويفقد عا التشویرا  
 ويصیر يقرّ تنقییر  
 تا تسکر المنجينا  
 وغضافير الوادى تطهير  
 وغنو تردد نعمتنا !

\* \* \*

سنونو نقط مقابل  
 لا تخاف مني ولا تنهّم !  
 ترفرف حولي تكاغيلي  
 تنا تفهمي إننا أم . . . .  
 وتصير تجني بخيلى  
 ومن صوف الغمات تلم  
 وتحسب حالا من العليل  
 وزالها حق بطاقتنا !

\* \* \*

والقمر كان لو غالي  
 بيتسرق وبنته وقا  
 من خلف الجبل جاي  
 بيتعربش دفة ودقة !  
 شاف الشمس معراي

غطست بالبحر نکابی  
ونگات عناء وترکتنا !

\* \* \*

العادي	العادى	مثل	الصبح
بَكِيرٌ	بَكِيرٌ	وَمَدْخَنْ	غادي
الوادى	الوادى	لِلْيَافِيَةِ	تايـفـ
العصافير	العصافير	وَيُفِيقَ	ويـفـيقـ
سَجَادى	المرجى	شاف	شـافـ
فرافير	وعليها	حضرـا	حضرـا
رمادي	بشال	غَطَّاها	غـطـاـها
الدـنى	تحـسـدـنا	وخلـا	وـخـلـا

\* \* \*

و بتشفوف	الندي	بنisan
عا مَدَا	المرج	وطولو
بِتَحَسَّبْ	فوق	الريحان
الدِّينِي	مشتاي	لولو
و فرافيير	لوات	لوات
من زهره	لزهره	، يقولوا :
حلا العيشى	بلبنان	
وشم الموا	بضيغتنا	!

## مشتاق ارجع للضياعة<sup>(١)</sup>

مشتاق ارجع للضياعا  
مشتاق كثير  
إتعشق لي بشى تينة وصيد عصافير !  
عنت عا بالى الضياعا وايا ما مشتاق  
عى السلى ييكوعى وحوش جرجيز !

\* \* \*

مشتاق عا دق المجوز ارعى العزات  
ومرشق ثوتات العودى وطفمى القزات !  
مشتاق ارجع إتلقح تخت اللوزات !  
وبسياح الضياعا إصلي الدبّق بكير !

\* \* \*

مشتاق ارجع عالضياعا شوف رفافي  
واسرح بمروج الخضرا وجو الناق  
واسمع دجاجة ستي عبقة ناق ،  
ورافق جدي وبراتو وأحبلوا البير !

\* \* \*

مشتاق ارجع انفرج عا بيت بي  
وموقدة الكنت حدا مد جري !

(١) وهي على بحرين ، الدعامة الأولى على المزدوج ، وعدد المقاطع فيه ٧ ، والدعامة الثانية على المتساوي وعدد المقاطع فيه ٤ .

مشتاق صوف الصفصافي ونبع المَسِي  
حد الْبَيْتِ الْلَّهِ تَرَكْتُو أَنَا وَزِغْيرِ !

\* \* \*

مشتاق ارجع عالصبعا صار لى زمان  
تارك مرقى ولادي وكل الاخوان  
مشتاق ارجع عالصبرى شوف الفَدَان  
شوف الجحشى والنعجى والقراقير ! . . .

## قرَادى

يا ضيعتنا مشتاقين كيك يا جارة صنين  
حلوين ضياعو لبنان لكن قدكمش حلوين

\* \* \*

## نسيري

(الأمير مبارك)

نسيري يوم الـكـنـازـروح شـوـقـلـاتـ وـقـلـيلـي  
وهـاـكـ الشـبـاكـ المـفـتوـحـ المنـوـ كـمـتـ توـمـيلـ

\* \* \*

نسيري هـاـذـاـكـ المشـوارـ دـغـوشـ تـمـلـ جـرـتناـ

وسيتي بريق الفخار الشانق حالو بخيمننا  
وقديش نخبر أخبار وكانت حلوة عيشتنا  
وع الموقد قدام النار من البلوطه تشويلى

\* \* \*

## النَّدَب

دموعكم لا تنجبوها من المحاجر أسكبواها  
واتركوا الزهرة الطيفية الباكيه تودع أبوها

\* \* \*

غيبتك غيبى طولية ضاع حلم الصير هنا  
قلوبنا صارت ذليلة بس وجك غاب عننا  
يا دموع العين سيل غاب كوكب من وطنا  
وما بقا باليد حيلة الموت ع المقتل طعنا

\* \* \*

يا صحابي وقفونى ونص ساعه أمهلونى  
أيمعوا كل القراءب والحباب يودعونى

## الفهرست

صفحة	الموضوع
١	مشكلتنا اللغوية ...
٧	ما هي اللغة ...
١٢	كيف نشأت اللغة
٢١	اللغة والعرق والعقلية
٢٥	علم اللغة ...
٣٣	أثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي
٤٠	لغة ولهجة ...
٤٢	السلطة العليا ...
٤٦	كيف تنشأ اللهجة
٦١	اللهجة وأسلوب دراستها ...
٧٦	اللهجة اللبنانيّة ...



[تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع كتاب «اللهجات»  
وأسلوب دراستها ، في مطبعة الرسالة بالقاهرة في يوم  
الأربعاء ٢١ رجب سنة ١٣٧٤ هـ الموافق ١٦ مارس  
سنة ١٩٥٥ م ] .

عبد العزى حسن

مدير الطبعة